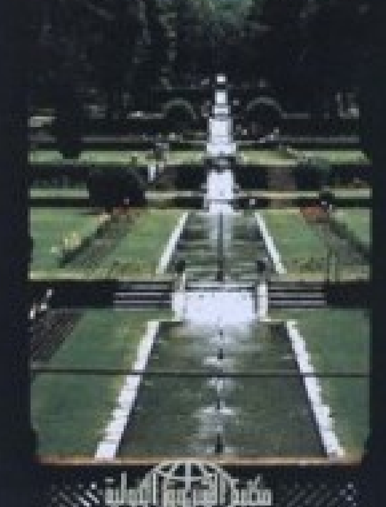
جنات وعيون

دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية

د. صفى الدين حامد



مكتبة الشروق الدولية

جنات وعيون

دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - فبراير ٢٠٠٩م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس : ٢٤٥٠١٢٢٨ ــ ٢٤٥٠١٢٢٩ ــ ٢٢٥٦٥٩٣٩
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٣٩٣٨٠٧١ - ٢٣٩١٣٠٧٢
Email: <shoroukintl@hotmail.com>
<shoroukintl@yahoo.com>

جنات وعيون

دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية

د. صفى الدين عبد الحميد حامد
أستاذ عمارة البيئة بجامعة تكساس
لوبوك - تكساس
الولايات المتحدة الأمريكية



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

حامد، صفى الدين عبد الحميد.

جنات وعيون: دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية.

صفى الدين عبد الحميد حامد.

ط١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩م.

١٢٨ص؛ ١٧ × ٢٤سم.

تدمك 9- 63 - 6278 - 977 - 978

١ ـ العمارة الإسلامية.

أ ـ العنوان. ٧٢٣,٣

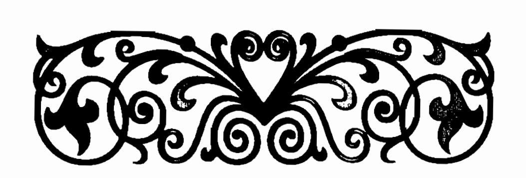
رقم الإيداع ٤٥٥٨ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 63 - 9

المحتويات

الموضوعات	الصفحة





عاشق الجمال والتجليات الروحية

هذه دراسة بديعة شائقة، لا تصدر إلا من عالم رائد، على درجة عالية من التخصص فى العمارة والتخطيط البيئى. امتلأ وجدانه بعشق الجمال وأقباس الروحانية. من هنا كان اتساعها لما تضمنته من أبعاد حضارية وبيئية وروحية. وامتلاؤها بكيمياء الشعر وحرارته فى نماذج رفيعة من الإبـداع التعبيرى والتصويرى، والمؤلف يأخذ بأيدينا وألبابنا إلى تجليات الحديقة الإسلامية فى تصميمها الذى جمع بين «المعرفة العلمية والنزعة الفنية والامتلاء الروحى».

ولقد أتيح لى فى مستهل حياتى العلمية ـ وأنا بعْدُ معلم للغة العربية فى مدرسة النقراشى النموذجية، فى حدائق القبة. بالقاهرة ـ أن أتعرف على مؤلف هذا الكتاب: الدكتور صفى الدين حامد، وهو طالب بالسنة الثالثة الإعدادية، وأن أكتشف استعداده المبكر وميله للهدوء والتأمل العميق وسيطرة النزعة العقلية على أسلوبه فى التفكير. وكانت عيناه الناقدتان من خلف نظارته الطبية تكشفان عما تمتلئ به جوانحه ومداركه من وعى يفوق سنوات عمره، يؤكد تمايزه ونضجه المبكر، وتفوقه المعرفى على أقرانه. وعندما ضربت يد السنين بيننا ـ تركت أنا العمل فى التعليم إلى المجال الإعلامى واتجه هو إلى دراسة الهندسة المعمارية فى جامعة القاهرة، منطلقًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الماجستير والدكتوراه ـ كنت سعيدًا بأن أتلقى منه بعد سنوات طوال من

البعاد والانقطاع، بطاقة تحية، تؤكد لى ما توسمته فيه وراهنت عليه عندما كان فى الثالثة عشرة من العمر. لقد أصبح الصبى الطموح أستاذًا فى الجامعات الأمريكية، وأصبح الدكتور صفى رائدًا فى حقول العمارة والتخطيط والبيئة. مشاركًا فى هيئات ومنظمات دولية عديدة، وواضعًا لبرامج علمية تشهدها الجامعات العربية لأول مرة. وأصبح مقدرًا له أن يعود إلى بلده مصر - بين الحين والحين - خبيرًا ومستشارًا وأستاذًا رائدًا فى مجال تخصصة، وهو أمر ليس بالقليل.

لكن اللافت فى التكوين الإنسانى والمعرفى للدكتور صفى الدين حامد أنه يمثل أصدق تمثيل العالم المسلم المعاصر، فى معادلة مدهشة امتزج فيها العلم بالإيمان والنَّفس الروحى والحس الفنى المرهف، الأمر الذى يفسر اختياره عمارة الحديقة الإسلامية مجالًا لهذه الدراسة. واختيار عنوان الدراسة مستلهمًا من آية قرآنية: ﴿ جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾، واتكاء منهجه على أسس راسخة متكاملة تجمع بين عناصر مادية وأخرى روحية، وتتغلغل فى أعمق أسرار الحديقة الإسلامية فى الأندلس ومدن فارس: أصفهان وشيراز وأشف، وإمبراطورية المغول فى القارة الهندية، من خلال رؤية ذات فضاء رحب متكامل ينتظم التنويعات المختلفة للحس الأساسى الواحد فى الجزيرة والمغرب وتونس ومصر وتركيا وصقلية والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية والصين وأوزبكستان. وأروع ما فى هذه الصفحات نجاح المؤلف وإبداعة فى الكشف عن العلاقة الوثيقة والتأثير الكبير للعقيدة والبيئة والثقافة فى تصميم الحديقة الإسلامية، من خلال الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر، وتأثير السنة النبوية، وتجليات هذا التأثير من خلال نماذج رائعة ومدهشة تتمثل فى حدائق العالم العربى المفقودة وحدائق قلعة الحمراء فى غرناطة بإسبانيا وبستان شالامار باغ فى باكستان، وحدائق بلاد فارس فى إيران، كما يتجلى فى تقسيم الحديقة أو البستان إلى أربع رياض يفصل بينها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، على غرار اتساع الرياض الأربع فى الجنة لنزلائها الذين نصت عليهم الآية القرآنية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

ومؤلفنا ينجز دراسته البديعة والمدهشة وعينه علينا نحن أبناء هذا الزمان المتراجع فى أقطارنا العربية والإسلامية، بهدف فتح عيوننا على المألوف الذى اعتدناه دون تأمله أو نقده أو الرغبة فى تغييره، بعد أن ساد القبح وتراجع الجمال، وسادت العشوائية، وتراجعت الهوية والشخصية، واتسع المجال للتغريب - وبخاصة فى مجال العمارة - من غير مراعاة للشروط والأوضاع المناسبة لبيئاتنا وثقافتنا وحضارتنا، من أجل تحقيق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا بعد يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًّا، وإعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا، من خلال جهد مشترك ينهض به خبراء عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثون فى الحضارة الإسلامية العربية، وبخاصة أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ - عبر عصور تاريخنا الإسلامى - مستوى عاليًا من الشمولية الإنسانية، الأمر الذى أرضى جميع الأذواق محققًا البعدين: الفنى والجمالى.

الجميل أن المؤلف - فى دعوته إلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تخطيط المواقع وتصميم الحدائق - لا يدعو إلى استعادة الماضى ومحاكاته وتقليده فى صورة حرفية توقف حركة الإبداع والتجديد. بل هى دعوة حافزة إلى التجديد الواعى، المستوعب فى وقت واحد للأصالة التراثية وابتكارات العصر، فى إطار ملاءمته ظروفنا وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية فى كثير من البلدان، بعد أن سيطرت روح التغريب والتقليد والحيرة الثقافية، وابتعدنا عن التميز الحضارى وعن تراثنا الفكرى الروحى.

فى الكثير من صفحات هذا الكتاب ينسكب على لغة المؤلف ماء الشاعرية ووهجها حين يعبر عن امتزاجه عقلًا وروحًا بتجليات فن عمارة البيئة فى منظومته الإسلامية العربية، وحين يعلق على آراء أساتذة عمارة البيئة الأجانب، فنحس أن لغته قد أصبحت لغة شاعر، استطاع بحسه المرهف أن يصغى لصوت العمارة ويستمع لغة الطبيعة ويحاور شتى الكائنات وعناصر الوجود من حيوان ونبات وجماد، وأن يتغلغل بوعيه فى عناصر الجمال ونورانيته المشعه فى الطبيعة والكون، وأن يستغرقه

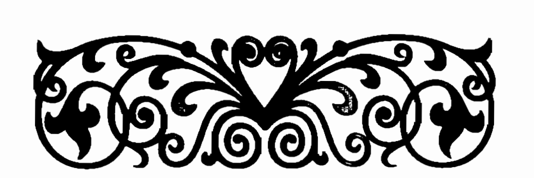
البحث الدائب والولوج المعرفى إلى عالم النصوص الأدبية والشعرية المتناثرة كالعقد المنظوم فى ثنايا هذا الكتاب، تزينه وتجلو حقائقة وتوثق مادته المعرفية، وتضفى عليه طابعًا جميلًا ينتظم هذه العناصر، ويصنع منها مادته المعرفية، وعطره الروحى وأقباسه الفنية.

تبقى تهنئة من القلب للصديق العزيز والأخ الكريم الدكتور صفى الدين حامد أستاذ عمارة البيئة وعاشق الجمال وأقباس الروحانية، على إنجاز هذه الدراسة الرائدة، وفتح الطريق أمام من يجيئون بعده من الباحثين والدارسين.

فاروق شوشة



مقدمة المؤلف



بدأت رحلتى مع الفنون الجميلة منذ الطفولة، من خلال مواد التربية الفنية وحصة الهوايات خلال سنوات المدرسة الابتدائية.

وما زلت أذكر جيدًا مدى التشجيع، بل والمعاملة المتميزة من الكثير من المدرسين كمكافأة لى على تفوقى ومهاراتى فى فن الرسم والنحت، وتصميم الديكورات المسرحية الخاصة بفرقة التمثيل المدرسى.

وتجدر الإشارة إلى مدى أهمية البيئة المنزلية والمناخ العام فى المجتمع المحيط فى ترقية الحواس وتنمية الملكات الفنية عند الأجيال الشابة، فقد نشأت فى بيت كان يقتنى فيه والدى مكتبة لا بأس بها، تشمل خير ما تنتجه المطابع فى مصر فى ذلك الوقت مثل مجموعات «اقرأ»، وروايات الهلال و«كتاب الهلال»، إلى جانب الدواوين الشعرية المعاصرة، وكان أبى ـ رحمه الله ـ يحرص أيضًا على شراء المجلات الأسبوعية.

أما من وجهة نظرى، فقد كانت الهدية الكبرى وسط كل هذا هو العدد الأسبوعى من مجلة «سندباد» التى كانت تصدر عن دار المعارف، وكانت مخصصة للأطفال، وقد كنت أنتظر هذه المجلة بشغف شديد لقراءتها حرفًا حرفًا، واستمتع بمشاهدة وتقليد الرسومات الرائعة التى كان يساهم فيها كبار فنانى مصر مثل حسين بيكار والحسين فوزى، إلى جانب بعض أعمال والت ديزنى.

وكان طبيعيًا عند انتهائى من شهادتى الثانوية العامة بتفوق أهلنى لدخول أى كلية بأى جامعة مصرية أن أختار مجال الهندسة المعمارية؛ لعلاقته الوثيقة بفن الرسم الذى عشقته وتفوقت فيه من نعومة أظافرى، والتحقت فعلًا بكلية الهندسة جامعة

القاهرة فى عام١٩٦٢ ولاكتشف بعد ذلك ومن خلال العام الأول مدى الإحباط الذى يصيب شبابنا عندما تنهار أحلامهم أمام قوالب جامدة وأنظمة تعليمية تيبست بفعل الاغتراب وفقدان الثقة أو الجهل بالتميز الحضارى لمصر كبوتقة لحضارات عظمى فرعونية وعربية وإسلامية.

ومرت السنوات الخمس، وتخرجت حاملًا بكالوريوس «العمارة» وأنا لم أسمع أو أدرس قط عن الحديقة الإسلامية أو العطاء المتميز للشريعة الإسلامية فى مجالات صيانة البيئة أو تخطيط وإدارة المدن، فقد تعلمت كل هذا عند دراستى للماجستير والدكتوراه فى أمريكا، ومن خلال مراجع أجنبية وعلى أيدى أساتذة من أصول أوروبية أو أمريكية.

واسترجعت فى ذهنى الكم الهائل الذى درسناه فى مواد تاريخ العمارة وتاريخ الفنون والرسم المعمارى، الذى كان تركيزه على العمارة الإغريقية والرومانية والقوطية والأمريكية والفرنسية كمثل يحتذى به. أما المادة اليتيمة التى تناولت «تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر» فقد دامت ثلاثة أشهر فقط، وكان يغلب عليها السرد التاريخى الممل الجامد والخالى من أى حياة أو روح أو محاولة لربط الماضى بدروسه وعبره مع الحاضر بتحدياته وقسوته؛ حيث اختار الأستاذ المسؤول تناول الموضوع بطريقة أرشيفية وهى المتبعة فى كلية الآثار من خلال الوصف الجاف لكل مبنى بأبعاده ومواده وموقعه، بينما أهمل تمامًا الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات التى أنتجت مثل هذه المنشآت.

ولعل القارئ يقبل معذرتى فى مثل هذا الاستطراد أو التأملات الشخصية؛ نظرًا لأنى أعتبرها مهمة فى سياق الأسباب التى حفزتنى على المبادرة بكتابة هذا المرجع، وأنا حالم بقدوم يوم تتغير فيه أحوال التعليم الجامعى فى مصر وفى كافة أقطار العالم العربى والإسلامى.

وفى اعتقادى أن هذه هى الخطوة الأولى والأهم لمواجهة ما تعانى منه مدننا العربية اليوم من مشكلات فى الإسكان وازدياد فى المناطق العشوائية، وزحف للأحياء الهابطة، وتضخم فى الكتلة العمرانية والكثافة البشرية وانتشار الطابع الحضارى المشوه أو المستورد أو المفقود تمامًا.

ولا شك عندى أن أعداد المتخصصين القادرين على مزج عناصر الطبيعة من مساحات خضراء وأشجار ومياه مع قوالب الطوب وكتل الخرسانة وتبليطات الأسفلت لهو هدف مهم وعزيز ويجب السعى إليه فورًا، وخاصة وأن مدن العالم العربى قد مرت فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين بحركة عمرانية ضخمة وغير مسبوقة.

ويتردد إلى سمعنا اليوم أن سكان القاهرة ـ على سبيل المثال ـ قد قاربوا على ستة عشر مليونًا، ومع ذلك فإن نمو القاهرة والمدن الكبرى الأخرى مثل الدار البيضاء، وتونس، ودمشق، وبغداد، لا يضاهى تلك الطفرة العمرانية التى مرت بها المدن العربية فى الأقطار النفطية مثل الرياض وجدة، وأبوظبى، والدوحة، والكويت، ومسقط، التى شهدت حركة بناء لم يعرف تاريخ البشرية مثلها اتساعًا وشمولًا وسرعة.

ومن الواضح أن هذه التحولات العمرانية كان لها تداعيات اقتصادية واجتماعية وثقافية جمة؛ ولذا نركز اهتمامنا فى هذا الكتاب على الربع الأخير من القرن العشرين، حيث تضافرت هذه الطفرة المعمارية مع صدام حضارى كبير بين حضارة غربية مهيمنة وشخصية عربية إسلامية تأبى طمس هويتها، وتؤكد على ذاتيتها وخصوصية تراثها الحضارى، وعلى أهمية التعبير الحضارى المعاصر الذى يتماشى وهذا التراث.

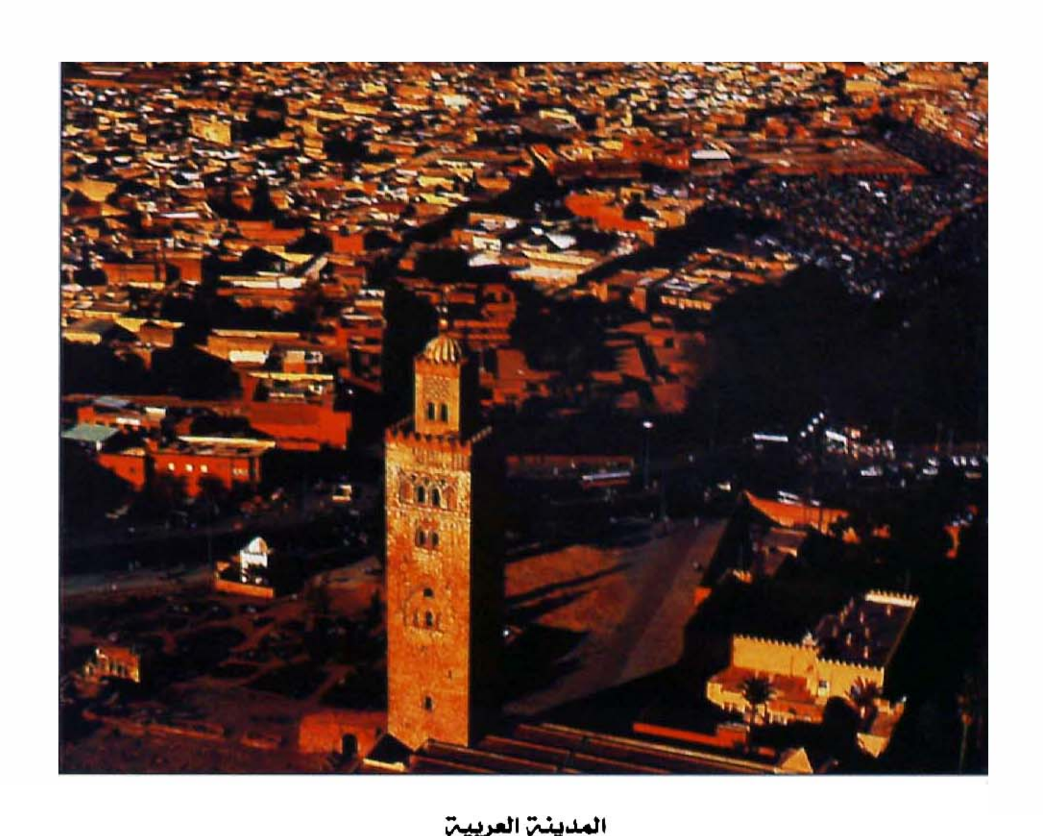
وعلى هذا فمساهمتى بتقديم هذا الكتاب للقارئ العربى وأنا أعيش وأعمل لحقبة تزيد على الثلاثة عقود بالولايات المتحدة الأمريكية فى مجال عمارة البيئة لهو دعوة للمثقفين العرب عامة، بل صرخة للمتخصصين منهم فى مجالات عمارة البيئة وتاريخ الفن والتخطيط العمرانى، للقيام بدور عاجل وفعال فى تجديد هوية المجتمع، وفى وصل ما انقطع من سلسلة التطور الطبيعى فى الحضارة الإسلامية والثقافة العربية وفى تهيئة المناخ العلمى والثقافى والفنى فى الوطن العربى لمرحلة جديدة من التنمية المتوازنة والمستدامة والقائمة على مراعاة البيئة الطبيعية وإمكانياتها، واحترام الإنسان العربى واحتياجاته وأحلامه، ولعلهم فى هذا الصدد أن يستلهموا نفحات الشرق فيما يوحيه من جمال بيئته الطبيعية، وتاريخه الحافل الممدود، ولعلهم يجدون فى حقل عمارة البيئة، وفى ذكريات الحديقة الإسلامية أوسع نافذة لاسترجاع متعة النفس وطمأنينة القلب وسعادة الروح.

محاور الدراسة ومجالاتها

قد يتساءل الكثيرون من القراء: ماذا نعنى بالحديقة الإسلامية؟ هل هى كل بستان قام بتصميمه إنسان مسلم؟ أم هى كل متنزه يتم إنشاؤه فى قطر مسلم؟ أم كل حديقة يطلق عليها المسؤولون عن الأمر أو زاروها أنها حديقة إسلامية؟

مثل هذه الأسئلة وغيرها هى بعض ما ستتطرق إليها دراستنا فى هذا الكتاب، وإلى جانب ذلك سيتناول كل فصل من فصول البحث واحدًا من الأسئلة التالية:

* ما هى أهمية دراسة الحديقة الإسلامية عبر التاريخ؟ وما علاقة دراسة كهذه بما تواجهه المجتمعات العمرانية من تحديات وعقبات فى أنحاء العالم العربى والإسلامى اليوم؟
* ما هى المقومات والعناصر الأساسية للحدائق الإسلامية عبر التاريخ؟ وماذا يميزها عن حدائق الأمم والشعوب الأخرى؟
* ما هى مصادر الإلهام والمؤثرات الأخرى التى ساهمت فى تشكيل الطابع الخاص بالحديقة الإسلامية كما نشاهدها فيما تبقى منها حتى اليوم أو كما سجلتها الوثائق والمخطوطات التاريخية ؟
* ما هى الأبعاد الحضارية والبيئية والروحية التى أثرت على الفنان الذى ساهم فى تصميم وتنفيذ الحدائق الإسلامية التقليدية؟
* كيف نفسر التناسق والوحدة فى التكوين الفنى بين الحدائق الإسلامية المختلفة بالرغم من اختلاف قوميات منشئيها وتفاوت تاريخ تشييدها؟
* مادا نعرف عن الأفراد والجماعات الذين كانوا وراء عملية التصميم الهندسى والخلق الفنى والعمارة البيئية والإدارة العلمية لهذه الحدائق؟ ومن كان منهم من الرواد ومن كان من المستعملين؟
* كيف نستفيد من تراثنا الضخم فى حقل عمارة البيئة عامة، والحديقة الإسلامية خاصة؟ وما هى الخطوات المطلوبة لتحقيق هذه الفوائد فى المستقبل القريب والبعيد للأمة العربية والعالم الإسلامى؟



المدينة العربية

تعانى المدن التاريخية فى العالم العربى من مشكلات التضخم السكانى، وازدياد المناطق العشوائية، وتلاشى عناصر الطبيعة داخل الكتلة العمرانية.

وأخيرًا، أقدم شكرى لكل من ساهم وساعد فى إخراج هذا الكتاب إلى النور، وخاصة زوجتى وزملائى وأساتذتى وتلاميذى وكل الباحثين والمؤلفين الذين سبقونى فى الكتابة عن الحديقة الإسلامية، وعن عمارة البيئة عبر تاريخ الأمـة العربية، وأخص بالذكر الصديق العزيز الدكتور زهير شهاب، الأستاذ بكلية الطب ـ جامعة تكساس ـ الذى قام بقراءة النص الأصلى ونقده، والأخ الكريم الدكتور فيصل بن مبارك، الأستاذ بجامعة الملك سعود، الذى تفضل بمراجعة الفصل الأخير ونقده، وكلاهما ساهم بملحوظات وإضافات قيمة فى هذا البحث. كما أود تقديم عميق امتنانى إلى الأستاذ

الفاضل صبرى الباجا الذى تبرع بالقراءة والطباعة والتعليق على النص الأصلى أثناء فترة زيارته للولايات المتحدة.

وأخيرًا وليس آخرًا، أشكر صديقى وزميل دراستى المهندس عادل المعلم الذى اهتم وشجع على كتابة هذا العمل منذ كان فكرة فى ذهن المؤلف.

د.صفى الدين عبد الحميد حامد

أستاذ عمارة البيئة بجامعة تكساس

لوبوك ـ تكساس

الولايات المتحدة الأمريكية

«سلوا عن ديار الشام ورياضها، والعراق وسوادها، والأندلس وأرباضها.
سلوا مصر وواديها، سلوا الجزيرة وفيافيها، سلوا الدنيا ومن فيها.
سلوا بطاح إفريقية، وربوع العجم، وسفوح القفقاس.
سلوا حفافى الكنج، وضفاف اللوار، ووادى الدانوب.
سلوا عنا كل أرض فى «الأرض» وكل حى تحت السماء.

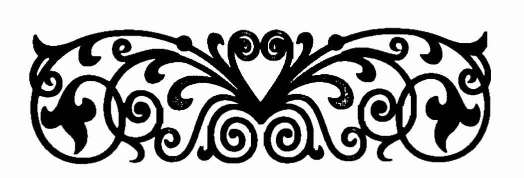
* * *

نحن حملنا المنار الهادى، والأرض تتيه فى ليل الجهل، وقلنا لأهلها: هذا الطريق!
نحن نصبنا موازين العدل يوم رفعت كل أمة عصا الطغيان.
نحن بنينا للعلم دارًا يأوى إليها حين شرده الناس عن داره.
نحن أعلنا المساواة يوم كان البشر يعبدون ملوكهم ويؤلهون سادتهم.
نحن أحيينا القلوب بالإيمان، والعقول بالعلم، والناس كلهم بالحرية والحضارة.»

على طنطاوى

من كتاب «قصص من التاريخ»

الفصل الأول



الحديقة الاسلامية وعمارة البيئة

١- خلفية تاريخية

٢- تعريف الحديقة الاسلامية

٣- قارئ هذا الكتاب

٤- تصحيح المفاهيم

٥- جدوى دراسة الحديقة الاسلامية



١- خلفية تاريخية

نشأت فكرة هذا البحث من اقتناع المؤلف بأربع نقاط أساسية:

أولًا: إن الفهم المتعارف عليه لتاريخ الفنون الإسلامية عامة ودراسة الحديقة الإسلامية خاصة سوف يعود على الإنسان العربى المعاصر ومدينته بثراء فكرى ورؤية واضحة لتراثه الروحى، ويبدو أننا اليوم أحوج ما نكون إلى هذا التراث ونحن نستقبل أيامًا وسنوات صعبة مليئة بالتحديات والحاجة إلى السعى والأمل والمواجهة لمواقف جديدة وعقبات جمة وآمال طموحة .

وفى تقديرى وتقدير الكثيرين، أن هذا التراث الروحى الذى نبحث اليوم فى ماهيته وكيفية إحيائه، هو ضرورة أساسية وعطاء جوهرى فى سبيل بناء الشخصية السوية المتكاملة للإنسان العربى المعاصر، هذا الإنسان الذى ستقع عليه فى المستقبل مهمة تخطيط وتصميم وتمويل وإدارة وتنفيذ وصيانة واستعمال المدينة العربية بكل عناصرها ومقوماتها.

ولا تخطئ النظرة العابرة ملاحظة ظاهرة عامة بشأن أغلب المدن العربية المعاصرة فى شتى أنحاء الوطن العربى، وفحواها افتقاد عنصر الجمال ولمسات الطبيعة، والطابع القومى الذى كان فيما مضى يميز القصور والمبانى والبيوت والمدارس والأسواق والطرقات والميادين والحدائق.

ونحن نرى أثر ما كان ـ فيما مضى ـ من وحدة اللغة والفكر والثقافة والعقيدة فى الوطن العربى الإسلامى بأساليبه المتعددة فى شتى الفنـون.

ويتفق الدارسون لهذا الموضوع على أن المدينة العربية بدأت تفقد جوهر شخصيتها الفنية منذ أن استسلمت وبغير رجعـة أمام زحف الطرز والأساليب المستوردة من الغرب وخاصة خلال عهود الاستعمار.

ثانيًا: إن العالم بأثره الآن يسير نحو نهضة فكرية جديدة، ومن خلالها يتكشف له تدريجيًّا أن «عمارة البيئة ـ Landscape Architecture» قـد يكون فعلًا أكثر الفنون شمولًا فى تاريخ البشرية.

وقد تبلورت هذه النهضة فى قرارات المؤتمر الدولى للأمم المتحدة الذى عقد فى استكهولم عاصمة السويد فى صيف عام ١٩٧٢، وقد سمى حينذاك بـ «مؤتمر البيئة البشرية»، حيث تدارس ممثلو مائة دولة مشاكل البيئات الإنسانية سواء كانت عمرانية أو ريفية أو صحراوية.

وقد كان هذا المؤتمر بداية سلسلة من اللقاءات الدولية التى عالجت بجدية وعمق مشاكل التجمعات البشرية والإسكان والزحف العمرانى، وموارد مياه الشرب وزحف الصحراء والتلوث البيئى وغيرها. وفى عام ١٩٩٢، نظمت هيئة الأمم المتحدة المؤتمر الدولى المسمى حينئذ «قمـة الأرض» فى مدينة «ريو دى جانيرو ـ Rio de Janiro» بالبرازيل.

ولأول مرة فى تاريخ البشرية، اجتمع ملوك ورؤساء وقادة ما يزيد عن مائة وخمسين دولة ليوقعوا على الوثيقة التاريخية المسماة «إعلان أو برنامج عمل القرن الواحد والعشرين»، التى أكدت على أهمية التصدى لمشاكل البيئة العالمية من خلال اتفاقات قانونية وعبر مؤسسات التعاون الدولى، ومن أجل الهدف الاستراتيجى الأهم وهـو «التنمية المستدامـة» من خلال مكافحة الفقر، وتغيير أنماط الاستهلاك، وإعداد الكوادر البشرية، والارتفاع بالخدمات الصحية للمجتمعات الإنسانية، والتكامل بين أهداف صيانة البيئة والتنمية الاقتصادية.

ومن الأقوال المأثورة الآن فى العالم الغربى «إن الأرض هى السلعة الوحيدة التى لا تنتج الآن»، والقول واضح فى مفهومه، أننا إذا لم نستخدم هذه الأرض أحسن استخدام وبأكفأ انتفاع فيما يقام عليها وما يستخرج من باطنها، نكون قد أجرمنا جرمًا بشعًا فى حق أنفسنا وحق الأجيال المقبلة.

ولعلنا لاحظنا حاليًّا فى أوربا وأمريكا وكافة بلاد العالم المتقدمة أن مصمم المواقع يقف فى موقف الصدارة وموقع القيادة للحفاظ على البيئة الطبيعية، والدفاع عنها أمام القرارات العفوية التى دمرت فى الماضى القريب لاتزان الموجود فى الخلق الإلهى.

ومما يدعو حقًا للدهشة أن هذا التدمير للبيئة ما زال يتم ـ وحتى الآن ـ فى البلاد النامية تحت ستار شعارات براقة كالتقدم التكنولوجى أو التنمية العمرانية، حتى تلوثت أنهارنا وبحارنا، وتعرضت شواطئ سواحلنا للتآكل وأوديتنا للسيول وأراضينا الخصبة للانقراض.

ثالثًا: إن معظم البلاد العربية تتميز بمناخ حار جاف صيفًا ومعتدل المطر شتاءً؛ ولهذا فإن طبيعة الحياة اليومية للإنسان العربى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالاستعمالات الخارجية وعناصرها المختلفة مثل، الشرفة والصحن والفناء والسطح والحديقة، والسوق، والشارع، والميدان العام، وخلافه. وبناءً عليه، فإن عناصر الفراغات الخارجية، ونوعيتها ومساحتها ومواقعها وبرامجها وتصميمها وتطويرها أصبح ضرورة مهمة فى تنمية المدينة العربية، ومن المؤسف حقًا أننا نلاحظ الآن أن تصميم هذه العناصر وتخطيطها يتولاه فى غالب الأمر الكثير من غير المتخصصين، ولا يدعو ذلك للدهشة؛ حيث إن عنصر الخبراء المتخصصين غير متوافر حاليًا بين أبناء هذه الأمة؛ لأن جامعاتنا العربية ما زالت تفتقر إلى أقسام خاصة لتعليم وإعداد مصمم الموقع الخبير، وذلك باستثناءات قليلة مثل الوضع بالمملكة العربية السعودية التى تمكنت منذ نهاية السبعينيات من إنشاء قسم خاص للدراسات العليا فى حقل عمارة البيئة بجامعة الملك فيصل بالدمام، وكذلك كلية تصاميم البيئة بجامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة. ومما هو جدير بالذكر أن الإهمال لقيمة حقل عمارة البيئة قد أدى إلى عجز الكثير من الفراغات الخارجية فى المدينة



حديقة فناء المسكن

تتميز معظم بلاد الشرق الأوسط بمناخ حار وجاف، ولهذا ارتبطت الأنشطة اليومية للإنسان العربى بالفراغات المفتوحة مثل الشرفة، والحديقة، والفناء، والبساتين.

العربية المعاصرة عن الاتساق مع اعتبارات المناخ صيفًا وشتاءً، وعجزها كذلك عن أن تكون ملائمة لاحتياجات وقيم وفضائل حياتنا الأصلية. وبالمقارنة، يؤكد لنا التاريخ حقًّا أن أجدادنا العرب قد أقاموا دعائم فن عمارة البيئة فى دولة الأندلس وشمال أفريقيا، ونجد أن مدنًا كثيرة، مثل غرناطة وطليطلة وقرطبة والقيروان تشهد على ذلك حتى الآن، ومن روابى أسبانيا فى الغرب إلى العواصم الإسلامية فى الشرق مثل سمرقند وأصفهان وشيراز وأجرا، قدم التراث العربى الإسلامى دروسًا للبشرية فى عشق البيئة الطبيعية، والتمكن والبراعة فى مزج الأشجار والماء وتضاريس الأرض مع المبانى والطرقات والمنشآت. ومن ثم، فلا عجب أن استمرت الحدائق الإسلامية التاريخية حتى يومنا هذا مصدرًا للاستمتاع والبهجة للمسلم ولغير المسلم على وجه السواء.

ولا عجب أيضًا أن تظل كلها عبر العصور واحة للتأمل فى أمور الحياة والموت، والتفكر فى شؤون الدين والدنيا.

رابعًا: إن افتقار المكتبة العربية لأى مرجع علمى أو موسوعة شاملة تتناول الحديقة الإسلامية لهى حقيقة مزعجة قد لا يصدقها القارئ العادى أو الباحث الأكاديمى، فبالرغم من نشر المئات من الكتب والمقالات والأبحاث العلمية عن هذا الموضوع باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية وغيرها، فما زال المؤلفون العرب بعيدين عن هذا المجال من الكتابة والبحث، وقد حاول الكثير من المفكرين المعاصرين تفسير هذا النقص غير المقبول، الذى قد يشير إلى أن اللغة العربية التى كانت فى العصر الذهبى للإسلام لغة السبق العلمى، ليس فقط فى علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، والتاريخ والخطابة، بل فى العلوم الطبيعية والتطبيقية، وحقول الفنون كالموسيقى والعمارة والزخرفة والخزف قد صارت لغة يرميها أهلها بالعجز ويتهمها البعض باعتبارها سببًا للتخلف، بل وتفتقر مكتبتها فى القرن الواحد والعشرين إلى مرجع فى موضوع مهم شغل بال الكثيرين من أهل العلم والفن والثقافة والآداب منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا، ألا وهو الحديقة الإسلامية بجوانبها المختلفة.

وقد يجادل البعض فى أن مئات الكتب التى نشرت بلغات أجنبية قد تكفى، وأنه من

الواجب على المثقفين العرب والهيئات الأكاديمية أن يكرسوا طاقاتهم ويستثمروا أوقاتهم فى ترجمة أمهات الكتب وأهم المراجع الكلاسيكية الخاصة بالحدائق الإسلامية، وردنا على هذا واضح وصريح:

«إن جهود الترجمة مطلوبة ومحمودة دائمًا فى هذا الحقل، بل وفى شتى حقول العلم والمعرفة أيضًا، ولكنه لا غنى عن كتب وأبحاث باللغة العربية وبقلم مؤلفين من الناطقين باللسان العربى والدارسين لعلوم القرآن والسنة والواعين بأدبيات الثقافة الإسلامية، والملمين بدراسات وتاريخ الفنون الإسلامية».

وقد توصلت إلى اقتناعى هذا بعد أن أمضيت ما يزيد عن ربع قرن فى البحث والتدريس والتأليف فى هذا المجال، واستنتجت أنه بالرغم من الجهود الجبارة والكفاءة العلمية لكثير ممن قاموا بالتأليف والنشر فى هذا المجال إلا أن كتاباتهم قد امتلأت بأخطاء - غير متعمدة فى الغالب - أو نواقص شتى وسوء فهم أو سطحية فى تفسير الكثير من الجوانب الخاصة بالأبعاد الحضارية والروحية والإنسانية لحدائق الإسلام.

ولا يغيب على الباحث المدقق فى مجال عمارة وتصاميم البيئة أن يدرك أن كل هذه السلبيات ناتجة عن الجهل بالخصوصية الثقافية والذاتية الحضارية لأخلاقيات وفنون وآداب المسلمين، فالرحالة الأوروبى أو الأمريكى فى أغلب الأحيان يكتب عما يرى وليس بالضرورة عما يفهم من معانى وأهداف وتراث فلسفى خلف العمل الفنى الذى يزوره.

والإسلام ليس دينًا فحسب، بل طريق حياة، امتد وانتشر شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، واعتنقه مئات الملايين من البشر من أجناس وأعراق مختلفة ووحدتهم عقيدة لا إله إلا الله، وتجمعت قلوبهم على حب رسوله العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، وارتبطت ثقافتهم بالقرآن الكريم.

ومما يؤكد صحة استنتاجنا هذا أنه فى العقود القليلة الأخيرة تبلور إجماع فى الأوساط الأكاديمية أن حقل دراسات الفنون الإسلامية عامة، وفن الحديقة الإسلامية خاصة هو وليد شرعى وطبيعى لحقل اللغات الشرقية، فعلماء اللغويات والمؤرخين بحثوا الثقافة الإسلامية من خلال النصوص المكتوبة وأدبيات عصور الإسلام المختلفة،

ولكنهم أعطوا الأولوية والصدارة القصوى للقرآن الكريم؛ لأهميته العقائدية والتاريخية ولكونه وثيقة ميلاد لهذا الدين السماوى الجديد.

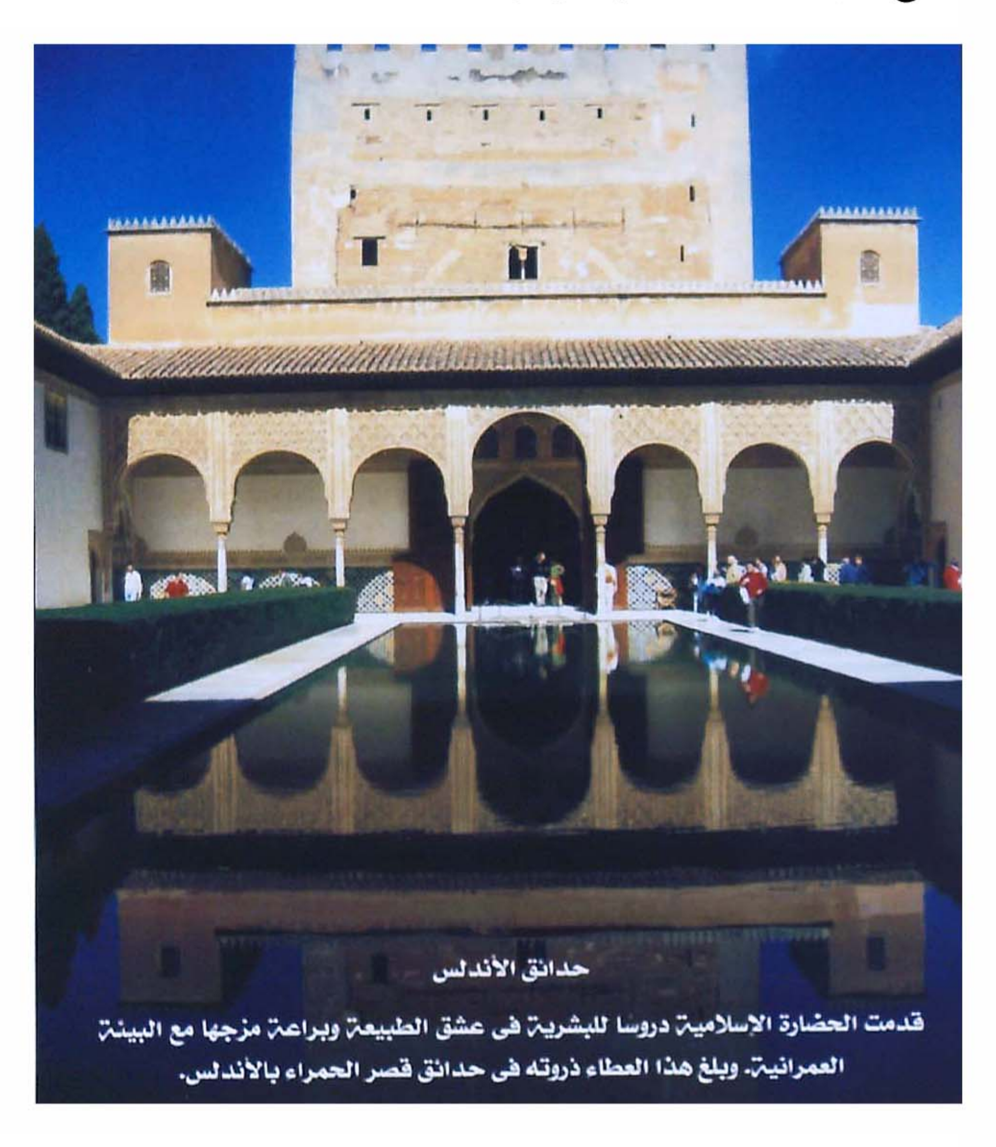
وإضافة إلى ما سبق من عوامل تؤكد على أهمية وضرورة المعرفة العميقة باللغة العربية والثقافة الإسلامية لدى كل مؤلف يتصدر للكتابة عن فنون الإسلام، فمن الواجب أيضًا التأكيد على أن الظاهرة الغالبة على الفنون الإسلامية هو الدور الرئيسى الذى يلعبه النص المقروء، ويبدو أن المعانى والأفكار والمشاهد غالبًا ما تصل للمشاهد من خلال الكلمات المكتوبة وبدرجة أقل كثيرًا من خلال المناظر المرسومة ،وبالرغم من هذا فمن الخطأ الفادح أن نتصور أنّ ما ذكر عن جنات الخلد فى القرآن هو وصف هندسى تفصيلى، وإنما هو ومضات وإشعاعات تكفى لإلهام أحاسيس ومشاعر الفنان فى إبداع وابتكار حدائق الأرض.

ومن اللافت لنظر الكثير من النقاد الفنيين وعلماء تاريخ الفن أن حلم الحديقة الإسلامية بالذات انتشر واتسع مداه لينعكس على فنون أخرى كزخرفة مصابيح القصور وقناديل المساجد، وتعشيقات الرخام، وتصميمات السجاد العجمى، والخزف العثمانى، ورسومات الكتب والوثائق المهمة.

كما يجب إضافة أن شيوخ وأقطاب الطرق الصوفية بما لهم من ذهن شاعرى وإحساس فنى كانوا من أكثر المهتمين وأسبقهم فى التغنى بقصائد عن الإنسان والطبيعة، وجنات الآخرة، وروائع الفردوس المنشود عند كل عابد وعارف ومؤمن. ومن ثم، كان لهم تأثير كبير على تبلور فكرة الحديقة الإسلامية، فعلى سبيل المثال يشير ابن عربى فى تأملاته الصوفية إلى احتواء حدائق جنات الآخرة على ثمانية أنواع، فبعضها مخصص للأطفال الذين فارقوا الحياة قبل بلوغهم سن الرشد، وبعضها لمن لاقى عقابه فى الآخرة، وكل منها تنقسم إلى عشرات الدرجات لمكافأة كل إنسان على قدر عمله خيرًا أم شرًّا، وإلى جانب ابن عربى نجد أعلام الصوفية مثل أبى الحسن النووى، وجلال الدين الرومى، ومحمد إقبال، قـد استفاضوا فى الحديث عن الفردوس الموعود وجنات الخلد.

والقارئ المتعمق مثله كمثل المؤرخ النابه أو الفنان المتأمل، سيخلص من رحلته مع كتابات هؤلاء العمالقة إلى الأنسجة المتناغمة والصور الفنية المتعددة عند كل منهم،

وسوف يندهش كيف يتحول النص القرآنى إلى قصيدة، وكيف تتحول القصيدة إلى رؤية. أمـا الباحث فى تاريخ فن تصميم الحديقة الإسلامية فسيرى أشياء أخرى، سير ى كيف تتحول الرؤية إلى حديقة، وكيف تترجم القصيدة والرؤية إلى بلابل تصدح، وإلى عطر يفوح، وإلى أشجار تنمو لتجلب الأغصان والزهور والظلال، وإلى نافورات تتدفق لتصنع العيون والجداول وتجلب الحياة والجمال.



حدائق الأندلس

قدمت الحضارة الإسلامية دروسا للبشرية فى عشق الطبيعة وبراعة مزجها مع البيئة العمرانية. وبلغ هذا العطاء ذروته فى حدائق قصر الحمراء بالأندلس.

٢- تعريف الحديقة الإسلامية

يطرح دائمًا علماء تاريخ الفنون مجموعة من الأسئلة التقليدية كمدخل فى دراستهم لأى حقبة تاريخية. ولهذا، فليس من الغريب أن يتردد بين بعض الباحثين فى مجال دراسات الفنون الإسلامية سؤال نمطى وأساسى، مثل هل يوجد فعلًا ما يمكن تسميته بالحديقة الإسلامية ؟ وقد يستطردون من خلال هذه المقدمة إلى أسئلة أخرى مماثلة فى أهميتها مثل:

* هل ترتبط الحديقة الإسلامية فقط بالصور المثالية لجنات الخلد كما صورها القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف؟ أم أن عوامل البيئة والاقتصاد والسياسة كان لها تأثير فاعل أيضًا؟

* هل من المناسب أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية من خلال تصنيف واضح لأنواع هذا الفن مثل الحديقة الخارجية، أو ما يسمى بالبستان وحديقة الصحن، وحديقة القصر، وحديقة الضريح وحدائق المقابر ... إلخ، بالرغم من تشابه الكثير منها فى مميزات عدة وعناصر شتى، بل وتطابقها فى بعض الأحيان من حيث أهداف التصميم الفنى والمعالجة البيئية؟

ويبدو واضحًا من بعض هذه التساؤلات أن شعوب أوروبا وأمريكا فى عصرنا الحالى تجهل ـ عمدًا أو عفوًا ـ أن فن تصميم الحدائق كما هو ممارس الآن تعود جذوره العميقة إلى تراثنا العربى من خلال عصور ازدهار الدولة الإسلامية، ويعتبر فن تصميم الحدائق الآن إحدى المهام الرئيسية لحقل عمارة البيئة. ونظرًا لضحالة المساهمة الحالية للعالم العربى فى الحركة الأكاديمية والتطبيقية لهذا المضمار، نجد أن قليلًا ما يُذكر عطاؤنا الحضارى فى الماضى.

وأعتقد أن هذا الجهل المتفشى بقيمة المساهمة التى قدمتها الحضارة العربية فى الماضى يرجع أصلًا إلى تهاوننا فى دراسة هذا التراث الخصب وتحليله وتدوينه، ثم نشره باللغة العربية، وترجمته إلى اللغات الأخرى.

ولعله من المهم ـ بادئ ذى بدء ـ أن نؤكد أنه من الحكمة، بل من الضرورة أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية على مستوى شمولى للعالم الإسلامى كله، وليس على نطاق

ضيق لمنطقة جغرافية محدودة أو حضارة قومية بذاتها، وإذا تتبعنا هذا القول سنجد أن مهمتنا فى تعريف الحديقة الإسلامية أصبحت مهمة ضخمة فى حجمها؛ لأنها ستمتد عبر ثلاث قارات، هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإذا نحن ألقينا النظر على الأمثلة الباقية حتى يومنا هذا من الحدائق الإسلامية التاريخية، فسنجد أنها تشمل حقبة زمنية تقرب من ثمانية قرون (فى رأى غالبية علماء التاريخ)، ولكن إذا تعمقنا بعين الباحث فى مصادر أخرى كالمخطوطات الأثرية والمؤلفات الأدبية والحفريات، فسنجد أن تاريخ الحديقة الإسلامية قد غطى ما يزيد عن الأربعة عشر قرنًا، ونخلص من كل هذا أن مهمة كتابة بحث شامل عن الحديقة الإسلامية يعتبر مهمة شاقة وضخمة لأكثر من سبب، أهمها أن الحدائق الإسلامية قد بنيت عبر التاريخ فى أقاليم وبلاد متعددة وعبر قرون طويلة وساهم فيها أشخاص كثيرون. وإلى جانب هذا فإن العقبة الكبرى أن الحديقة بطبيعتها ليست بناء معماريًّا ثابتًا أو صرحًا مثل الآثار والمنشآت الحضارية الأخرى، بل جزءًا من البيئة الطبيعية التى تتأثر بالمناخ، وعوامل التعرية وتغيرات استعمال الأرض بواسطة الحكومات المتعاقبة، والتغير فى أولويات أصحاب العقارات وذوى الأملاك ومستأجرى الأرضى.

ولذا، فإن التأريخ لها وتحليل أطوارها سيعتمد أساسًا على ما تحتويه الوثائق التاريخية، أو ما دونه المؤلفون والرحالة فى عصورهم.

٣- قارئ هذا الكتاب

يبدو لى من خلال خبرتى الطويلة فى مجالات التدريس والبحث والتطبيق لمهنة الهندسة المعمارية وعمارة البيئة وتخطيط المدن أن كتابًا كهذا ـ يتناول موضوع «الحديقة الإسلامية» ـ يكون محل اهتمام نوعيات مختلفة من القراء مثل الباحثين فى تاريخ الفنون الإسلامية، وطلاب وأساتذة حقول تصاميم وعمارة البيئة وعلوم التخطيط العمرانى والإقليمى والبيئى. كما أتوقع أيضًا أن يكون محل نقاش بين الدارسين والمهتمين بموضوع تصميم الحدائق والمتنزهات والمناطق الخضراء المفتوحة، إلى جانب المثقفين والناشطين فى أمور شؤون البيئة وجمعيات المحافظة على الطبيعة، ومؤسسات المجتمع المدنى المشغولة بصيانة التراث الحضارى والإرث التاريخى للمجتمعات الإسلامية.

وقد لا أكون مبالغًا فى الاعتقاد أن الحديقة الإسلامية كان لها دائمًا مكانة خاصة فى شتى أنواع الفنون الجميلة للدولة الإسلامية عبر العصور؛ لأنها تمثل النموذج الفاضل والمفضل للتكوينات المرئية والجمالية فى فنون الرسم، والنحت، والخط العربى، وطباعة النسيج، وصناعة السجاد العجمى الشهير، وزخرفة الدور والقصور والمبانى العامة.

٤- تصحيح المفاهيم

وقبل أن نستطرد فى معالجة موضوع الكتاب الرئيسى وتحليل الحديقة الإسلامية من كافة جوانبها، يجب الإشارة إلى أن تصميم وتخطيط أى حديقة هو فن مثل كل الفنون الأخرى؛ أى أنه يشمل مجهودًا ذهنيًّا لحل مشكلة معينة أو تحقيق أهداف انتفاعية ومعنوية بذاتها من خلال المعاناة الفكرية والنفسية للفنان لابتكار أشكال تتميز بالتكوين الجمالى، ولإبداع علاقات ناجحة مع البيئة الطبيعية، ولتوفير مناطق خضراء مفتوحة صالحة للاستعمال البشرى، ولتنمية العلاقات الإنسانية بين المستعملين. وقد استمر فن تصميم الحدائق خلال عصور التاريخ منذ الدولة الفرعونية لقدماء المصريين وحتى يومنا هذا فى تطور ونبض مستمر، حتى أصبح تخصصًا دقيقًا ومحدودًا من مهنة متعددة الجوانب ومتسعة الأهداف حين تبلورت فى بداية القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت اسم «Landscape Architecture»، والتى اصطلح البعض فى العالم العربى على تسميتها بعمارة البيئة أو تنسيق المواقع. ورغم اتفاق المتخصصين فى الشرق والغرب على تعريف عمارة البيئة بأنها حقل يشمل التصميم والتخطيط المتخصص الذى يعتمد على تطبيق مبادئ العلوم والفنون لتحقيق أفضل استخدام وإدارة للأراضى، فللأسف إن الكثيرين من العامة وحتى أصحاب الشهادات العلمية منهم ما زالوا يخطئون الفهم متصورين أن عمارة البيئة تقتصر على تجميل المواقع الخارجية بنباتات الزينة. وبالطبع فإن مثل هذا الخطأ الأساسى مَثَّل خلطًا غير مقبول بين علوم البساتين ونباتات الزينة، وهى إحدى فروع العلوم الزراعية وبين مهنة عمارة البيئة التى مضى عليها قرنٌ من الزمن كحقل مستقل منفرد له شهادته العلمية الخاصة على شتى المستويات الجامعية والماجستير والدكتوراه، وله نقاباته ومراكز أبحاثه، وجمعياته النشطة بمؤتمراته ومجالاته العلمية المتخصصة فى شتى أنحاء العالم. وعمومًا فيجدر بنا ونحن على أعتاب القرن الواحد

والعشرين أن نشير إلى المحاولات المخلصة التى قام بها كثيرون من ممارسى مهنة عمارة البيئة وأساتذتها، والباحثين فيها لتوعية الجماهير العربية بماهية هذا التخصص، ولكن لسوء الحظ ما زالت الفكرة العالقة فى أذهان الغالبية العظمى من الناس أن عمارة البيئة لا يزيد عن مجرد تنسيق لنباتات الزينة، وتجميل الحدائق بالأشجار والزهور والحشائش. وبالطبع، فإن هذا التصور خطأ فاحش، ويشترك فى تحمله بعض الفنيين وخبراء التخطيط والمهندسين الذين لم تسمح لهم مناهج التعليم فى جامعاتنا حاليًا أو فرص ممارستهم العملية بالاطلاع على الدور المثالى الذى يلعبه اليوم معماريو البيئة أو مهندسو عمارة البيئة فى الدول النامية، مثل أمريكا وكندا وأوروبا واليابان. ومن أجل تفنيد هذا التصور الخاطئ يجب الإشارة إلى نقطتين مهمتين:

أولًا: طبقًا للنظرة الشمولية فى تعريف حقل عمارة البيئة، فإن مجالها حاليًا يتناول تصميم البيئة الإنسانية الكلية، ولا شك أن النباتات هى إحدى عناصر هذه البيئة وتعتبر إحدى مكوناتها المهمة. ولهذا، فإنه يبدومنطقيًا بل يتحتم على معمارى البيئة أن يكون واعيًا بالنباتات ليس فقط من وجهة نظر خواصها البيئية والإيكولوجية، ولكن أيضًا كعنصر من عناصر التصميم له خواص فنية وهندسية ومناخية.

ثانيًا: يجب التأكيد على أن أبرز دور تلعبه النباتات فى عملية التصميم البيئى هو تكوين الفراغات والتحكم فى أشكالها ونوعياتها؛ ذلك لأن الهدف الأمثل والرئيسى لعلوم تصاميم البيئة الأربعة هو خلق الفراغات النافعة لاستعمالات الإنسان فنجد مثلًا:

- «فن العمارة ـ Architecture» يهتم بتصميم المبانى وخلق الفراغات الداخلية.

- و«علوم تخطيط المدن ـ City Planning» يهتم باستيطان السكان، والتنبؤ باحتياجاتهم الاقتصادية والاجتماعية والمادية خاصة فى المجتمعات العمرانية.

- أما حقل «الهندسة المدنية ـ Civil Engineering» فيختص بتلبية حاجات المجتمع من طرق وجسور ونظم رى، وتوفير البنية التحتية للمستوطنات السكانية بما فيها من شبكات مياه الشرب والمجارى والصرف الصحى.

- أما مهنة «عمارة البيئة ـ Landscape Architecture» فتهتم بإدارة استعمالات الأراضى، وتصميم الفراغات الخضراء المفتوحة، وتخطيط الأنشطة الخارجية، وتعتبر

فعلًا حلقة الاتصال بين فن العمارة وعلوم تخطيط المدن، ولقد اتفقت الأوساط العلمية مؤخرا على التعريف الآتى:

«هــو فن تصميم وتخطيط أو إدارة الأراضى وتنسيق عناصر البيئة العمرانية مع عناصر البيئة الطبيعية، على أن يتم ذلك بواسطة تطبيق المعرفة العلمية والتراث الحضارى بهدف الحفاظ على المصادر والطاقات، ولأجل توفير بيئة نافعة وسعيدة».

ومن الواجب أيضًا أن نتطرق إلى موضوع شابه بعض اللبس وسوء الفهم، وأقصد به الانتشار الجغرافى وعدد الأمثلة التاريخية اللازم دراستها قبل الوصول إلى تعميم نظرى عن ماهيـة الحديقة الإسلامية عبر العصور وفى كافة الأقاليم. فقد ساد الاعتقاد فى الأوساط العلمية دائمًا أن الحديقة الإسلامية التقليدية تشمل ثلاثة أنواع فقط، هى: حدائق الدولة الأموية وملوك الطوائف فى أسبانيا والمسماة أحيانًا «Moorish Empire»، وحدائق مدن فارس مثل أصفهان وشيراز وشرف، وحدائق المغول الإسلامية Moghul Empire فى القارة الهندية. وقد حان الوقت لتصحيح هذا الاعتقاد الخاطئ عن طريق القيام بدراسات متكاملة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لبيان الأمثلة العديدة خاصة فى سوريا وصقلية والجزائر والمغرب وتونس ومصر وتركيـا والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية وبلاد الصين وأوزبكستان.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن بعض الجهود قد تمخضت فى السنوات القليلة الماضية عن عدة مشروعات واعدة فى مجال دراسة الحديقة الإسلامية، وأول هذه المشروعات هو المعروف الآن بـ«حديقة الشرق الأوسط التراثية ـ Middle East Garden Tradition»، وقد بدأ بداية متواضعة حيث دعا البروفيسور الفرنسى «ميشيل كونان ـ Michel Conan» والبروفيسورة التركية «نورهان أتاسوى ـ Nurhan Atasoy» إلى اجتماع تمهيدى فى واشنطن لتبادل المعلومات والخبرات بين مجموعة محدودة من المهتمين بتاريخ حدائق الشرق الأوسط، وقد عقد هذا الاجتماع فى يونيو ٢٠٠٤ بالعاصمة الأمريكية واشنطن بأحد مراكز الأبحاث التابع لجامعة هارفارد، وتقرر فى هذا الوقت تنظيم اجتماع آخر فى أكتوبر ٢٠٠٥ بمدينة غرناطة فى أسبانيا، حيث انضم إلى الفريق مجموعة أخرى تضم أكاديميين وباحثين من باكستان وإيران وتركيا وأسبانيا وإسرائيل، واتفق الفريق فى غرناطة على تجميع مجلد يضم عدة أبحاث يكتبها أفراد

المجموعة التى ساهمت بالحضور، وقام بالتحرير البروفيسور كونان، بينما ساهمت مؤسسة جامعة هارفارد للنشر بإصدار هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٧ تحت عنوان «تراث حدائق الشرق الأوسط: الوحدة، والتنوع، والتساؤلات، والمناهج من منظور التنوع الثقافى ـ The Middle East Garden Tradition، Unity and Diversity: Questions، Methods، and Resources in a Multicultural Perspective»، ورغم أنه من الواضح غياب دور الأكاديميين والباحثين العرب فى هذه الجهود الجديدة والتطورات المهمة ـ باستثناء انضمام الأستاذ محمد الفايز، وهو مغربى الأصل إلى تجمع غرناطة ـ فإنه يبدو أن الفرصة ما زالت مفتوحة للمشاركة فى مثل هذه المنتديات، خاصة وأن العمل بدأ تدريجيًّا فى أكثر من مشروع، ولعل أهمها حتى الآن هو إطلاق الموقع الخاص على الشبكة العالمية العنكبوتية تحت عنوان http: www.middleeastgarden.com، ويضم هذا الموقع حصيلة ما تم حتى الآن من محاولات لإنشاء أكثر من بنك معلوماتى مفهرس باللغة الإنجليزية وكذا بلغات أخرى، مثل الفرنسية والأسبانية والتركية والعربية والفارسية والعبرية. وحتى الآن يضم هذا الموقع قائمة تحت الإنشاء عن الحدائق التركية وحدائق الأندلس، ومعجم مصطلحات النباتات الموثقة فى الحدائق التاريخية لبلاد الشرق الأوسط. وكما يبدو، فإن الهدف الأساسى من هذا المشروع هو توفير المعلومات والحقائق الأساسية للباحثين وطلاب العلم، وهذا جهد يجب تشجيعه رغم أن الطابع الوصفى يبدو غالبًا على محتويات هذه البنوك؛ نظرًا لأن أكثر المساهمين فيها هم من علماء الآثار والحفريات وعلوم النبات وتاريخ الفن. وعمومًا فمن الصعب التنبؤ بالاتجاهات التى ستأخذها مثل هذه المحاولات الوليدة فى المستقبل، وهل سيساهم الأكاديميون العرب بنشاط وحماس؟ وهل سيهتم مهندسو عمارة البيئة بدعم هذه الجهود وإضافة دراسات تحليلية ونقدية متعمقة؟ هذا ما ستثبته السنوات القادمة سلبًا أو إيجابًا.

ونتمنى أن يكون هذا الكتاب بداية متواضعة لتكاتف الجهود بين إخصائى عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثين فى الحضارة الإسلامية العربية لتوثيق وتحليل الدراسات الخاصة بأمثلة الحدائق التاريخية كل فى بلده أو إقليمه.

٥- جدوى دراسة الحديقة الإسلامية

يشكك الكثير من المهتمين بقضايا التنمية فى العالم العربى من جدوى النظر للوراء كثيرًا أو استثمار الوقت والجهد فى دراسات تاريخية، وينادون بالتركيز على أبحاث المستقبل وخطط الإنماء، التى يروج لها الآن فى القرن الواحد والعشرين تحت مسميات كثيرة كالعولمة أو التحديث أو النظام العالمى الجديد وغيرها من عبارات براقة. ومن هذا المنطلق، تبدو محاولات إعداد دراسة عن الحديقة الإسلامية وتاريخها بشكل خاص ومتعمق أمرًا يجب مناقشته والدفاع عن جدواه قبل الخوض فى هذا البحث المتعدد الجوانب. وهنا يجب الإشارة إلى أن هذا الجدل قد يتسع مداه إلى أبعاد شتى، ويبدو لنا أن أخطرها هو التقليل من أهمية دراسة تاريخ الحضارة والفنون بصفة عامة، وقد ناقش هذه النقطة المؤرخ الأمريكى المشهور «دانيال بورستاين ـ Daniel Borstein» الذى شغل منصب أمين مكتبة الكونجرس فى حقبة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين حين قال:

«لقد أكدت لى خبرة حياتى أن دراسة التاريخ ليست دراسة فى أنماط وقوانين الحياة، بل هى علم يبحث فى الانفراد والتميز فى المنظومة الإنسانية. إن دراسة التاريخ هى الطريق لاستكشاف الإمكانات المتعددة للبشر، وبغير هذا ستنغرز مسيرتنا نحو التقدم فى مستنقع النمطية وأوحال التكرار».

وأعتقد ويشاركنى الكثير من المثقفين العرب، أن تحديات التنمية هى معركة حضارية قبل أى شىء. ورغم اقتناعى أنه يجب علينا فى خضم هذه المعركة أن نأبى الانغلاق على أنفسنا، ولا نرفض الجديد والحديث أو العالمى باعتباره دخيلًا، فذلك ما هو إلا استسلام لانتحار بطىء، ولكن فى الوقت نفسه، لا يجوز الهرولة وراء كل ما يأتى من الغرب باعتباره يمثل التقدم، فليس كل جديد مفيدًا وليس التقدم وقفًا على الغرب ونتاجه.

ومن المهم فى مجالنا هذا ونحن نستكشف فن وتاريخ ومستقبل الحديقة الإسلامية، أن نؤكد على أن نهاية الانقطاع عن الجذور الحضارية جريًا وراء مفهوم واهٍ للتقدم، ما هو إلا تخبط فى الضياع أو ملاحقة السراب، فماضينا جزء منا، بحلوه ومره على السواء، وواجب علينا الخروج من تلك الحلقة المفزعة التى تدعى أن هناك تناقضًا بين الحداثة والتراث، وذلك بالتأكيد على التجديد والتأصيل كوجهين لعملة واحدة خاصة فى حقول عمارة البيئة ودراسات تاريخ الفنون الإسلامية.

ولعلنا لا نبالغ إذا أكدنا أن دراسة تاريخ الحديقة الإسلامية سيساعدنا فى تحديد أهداف المستقبل لمجتمعاتنا العمرانية بالوطن العربى، وعلى توجيهه بتواصل المسيرة المطلوبة لتحقيق التنمية البيئية المستدامة. كما تساهم دراسة تاريخ عمارة البيئة بصفة عامة فى توضيح المفاهيم الحالية للمجتمعات العربية والإدراك الحسى لأفرادها تجاه البيئة الطبيعية والجذور الثقافية لهذه الاقتناعات والتصورات.

فالحديقة الإسلامية بتنوعها الجغرافى تقدم للباحثين فى مجال تصاميم البيئة أمثلة مفيدة لخبرة المجتمعات الإنسانية القديمة وإنجازاتها فى التكيف مع بيئتها الطبيعية، وكذلك قدرة البشر على ترويض بيئتهم الطبيعية كى تلبى احتياجاتهم المادية والمعنوية. ومن ثم، فدراسة كهذه سوف تساعد على تركيز الأنظار على أهداف وتوجهات المجتمع الإقليمى فى الماضى، وعلى توضيح وشرح الخلفية الثقافية لأعماله الخالدة عبر الزمن الغابر.

ونظرًا لتميز الحديقة الإسلامية بسبب تصميماتها التى تنبع من ثقافة ثرية وأفكار متدفقة وعقائد روحية نبيلة ومثاليات جمالية رفيعة، فإن أغلب الأكاديميين وعلماء التاريخ والفنون ينظرون لها كمصدر لا ينضب ليستوحوا منه منظومات فنية جديدة واستخدامها كقاعدة تعليمية زاخرة بالتجارب والإنجازات الإنسانية. ويتفق فى هذا التوجه الكثير من أهل الفكر والأدباء والفنانين وكذلك ممارسى مهنة عمارة البيئة، بل ويشاركوننى الاعتقاد أن مواد تاريخ علوم البيئة وغيرها من مواد تاريخ الفنون هى المقدمة المثلى لتربية وتدريب مهندس عمارة البيئة الناجح؛ وذلك لأن هذه الدراسات تقدم للطالب المبتدئ جرعة هائلة من مفردات التصميمات المتميزة عبر التاريخ. ونتأمل فى أسرار نجاحها وخلودها من خلال تحليلات للدور الذى تلعبه العناصر المختلفة من كتلة وشكل وموقع وضوء وظلال ومضمون وعلاقات تكوينية. وهذا ما لاحظه الخاصة والعامة عند زيارتهم أو دراستهم للحدائق الإسلامية التاريخية المرموقة، فقد وجدوا منجمًا لا ينضب من الأفكار والمثاليات ودروس الجمال والتأملات الفلسفية والروحانية. وعليه، فإننا فى هذا الكتاب نقدم الحديقة الإسلامية كإرث حضارى للإنسانية جمعاء، وليس حكرًا على قوم بعينهم أو دين بذاته أو إقليم بحكم موضعه أو ثراء حدائقه التاريخية.

وقناعاتنا أن هذا الإرث الإنسانى يحوى سجلًا حافلًا بالإنجازات الحضارية وعامرًا بدروس النجاح، قد عَبَر الهزيمة فى محاولات التكيف مع قوانين الطبيعة المتجانسة وطبائع البشر

المتقلبة. ويحضرنى فى هذا الصدد ما قاله عالم التخطيط العمرانى الأمريكى الشهير «لويس منفورد ـ Lewis Munford» فى كتابه المهم «ثقـافات المدن ـ The culture of Cities».

«إن هناك العديد من الحضارات البشرية التى برزت ثم انهارت عبر التاريخ، ولكن بدون أن تعى أو تدرك تمامًا مدى تأثيرها على بيئتها المحيطة من أرض وبشر».

وتعتبر دراسات الحديقة الإسلامية ذات أهمية خاصة؛ ففن تصميم الحديقة هو الفن الوحيد بين الفنون الأخرى الذى ازدهر تحت عباءة الحضارة الإسلامية، والذى لم يحظ حتى الآن بقدر كافٍ من البحث والتدوين فى المكتبة العربية، كما هو الحال بخصوص الفنون الأخرى كالعمارة والخط العربى والزخرفة والخزف والفسيفساء، التى استولت على اهتمام كبير عند المؤلف والقارئ العربى العادى والمتخصص على وجه السواء.

ومن الجدير بالذكر الإشارة فى هذا الصدد أيضًا أن هذا الحقل الخاص من تاريخ الفنون الإسلامية قد عانى وما زال يعانى من آفات التعميم الشديد الذى أدى إلى تشوهات فى التقييم الفنى لكثير من إنجازات العصور المتقدمة للإسلام فى مجال عمارة البيئة، ويعتبر ذلك نتيجة للإصرار على بحث كل الأمثلة الموجودة أو المدونة فى الوثائق التاريخية من وجهة نظر فقه القرن السابع عشر، الذى تبلورت فيه المذاهب المختلفة، وبدون عناية بالفوارق الجغرافية والاجتماعية والبيئية والحضارية بين أقاليم متباعدة الثقافة، مثل كشمير والأندلس.

وتعتقد الباحثة «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D. Fairchild Ruggles» أن غالبية الدراسات المتعلقة بعلاقة تصميم الحديقة الإسلامية بأدبيات الدين الإسلامى كانت محدودة النطاق؛ إذ ركزت فقط على القرآن والسنة، وعلى أمثلة الحدائق الأندلسية المتقدمة، وبدون تحليل لأى من الأمثلة المهمة التى جاءت فى وقت لاحق مثل حدائق مدينة الزهراء أو ما شمله الإرث الحضارى لشبه القارة الهندية خاصة فى عصر الأباطرة بابور وشاه جاهان وهمايون، رغم أن المعروف عن الحدائق الإسلامية فى جنوب شرق آسيا احتواء تصميماتها على عدد هائل من العناصر والأشكال والتكوينات الفنية، والكثير منها كان من ابتكار الفنان المسلم ونتاج مهارته الخلاقة أو كان تطويرًا متميزًا لما تم فى عصور سابقة لعصره أو فى أقاليم مختلفة أخرى.

الخلاصة

وبناءً على ما سبق ذكره من مناقشة جدوى البحث والدراسة فى موضوع الحديقة الإسلامية، فلعل القارئ قد استنتج معى أن تقصيرًا جسيمًا قد استمر لقرون عدة؛ حيث أغفلت مراكز البحوث والجامعات العربية والمعاهد العلمية، بل وأغفل أيضًا أهل الفكر والأدب وأساتذة تاريخ الفن العرب المساهمة فى البحث والتقييم والتدوين للحدائق الإسلامية.

إن فن تصميم الحدائق مثل كافة الفنون الجميلة الأخرى هو تعبير جمالى لما لدى الإنسان المسلم من رؤية فريدة ومتميزة تجاه البيئة الطبيعية وتجاه الواقع المكانى والزمانى والبعد التاريخى، بل والمجتمع الإنسانى والأمـة التى ينتمى لها، وأيضًا نحو ارتباطه العضوى والنفسى بكل هذه العوامل.

فهو إذًا فن يغلب عليه دائمًا التراث الثقافى والحضارى السائد فى المجتمع الذى أنتجه، والفريق البشرى الذى شارك فيه من فنانين وعلماء وعمال ماهرين أو من زوار ومستعملين.

ولا شك أن الدراسة المتأنية والمدققة للحدائق التاريخية تؤدى إلى التعرف على تأثير الإرث الحضارى الإسلامى على الفرد والجماعة، وعلى نوعية إدراكهم الحسى والمعنوى للبيئة الطبيعية وإدارة الموارد الطبيعية.

مما لا شك فيه أن الحديقة الإسلامية كانت وما زالت مصدرًا لا ينضب لإلهام الفنانين على اختلاف أنواعهم من شعراء ورسامين وأدباء ومعماريين، كما كانت حافزًا أساسيًّا لفنانى عمارة البيئة على استكشاف أنماط مختلفة وأفكار متنوعة لمعالجة الفراغات الخارجية وعناصر وعلاقات البيئة الطبيعية بها.

وإلى جانب ذلك، فتجدر الإشارة إلى عامل مميز تتميز به الحضارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى وهو الترابط الوثيق للعلاقات بين فنونها المختلفة.

والحدائق الإسلامية الشهيرة مثل حدائق قصر الحمراء، وجنات العريف، وشالامار باغ، هى أوضح دليل على هذا الترابط بين الفنون، فبينما يستخدم مهندس عمارة البيئة الأشجار والزهور والمياه والصخور كعناصر تقليديـة أساسية فى تكوين الفراغ

الخارجى، يُضم إليه مجموعة أخرى من فنانين فى الخط العربى والعمـارة والنحت والخزف والنقش والسيراميك ليشاركوا فى سيمفونية فنيـة خالدة على مـر العصور نطلق عليها ببساطة حدائـق الأندلس.

وأخيرًا، فدعونا من مروجى الأباطيل ومحترفى التشكيك ممن يعملون على إبعاد التراث الحضارى والجذور الثقافية عن مسيرة التنمية وخطط المستقبل، فكل محاولاتهم إنما تستهدف إفراغ الفنون من مضمونها كميدان للتعبير عن الغايات السامية والنبيلة للإنسان.

وهذا الكتاب هو رد عملى على فساد رأيهم؛ لأن الإنسان الذى لا يفسح للفن مجالًا فى نفسه وقلبه وفكره هو إنسان مظلم السريرة، والأمة التى لا تعرف للفن قيمة فى بناء الإنسان والمجتمع وبناء الحضارة أمة ظالمة متغطرسة وشريرة. وعلى هذا، فيحق للإنسانية كافة أن تشعر بالفخر والعزة عندما تجد أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ مستوى من الشمولية الإنسانية فأرضى جميع الأذواق وأعجب جميع النفوس، واستطاع أن يهز مشاعر مختلف الطبقات، شعبية كانت أو مثقفة، بدائية كانت أم راقية، وبهر جميع الشعوب شرقية كانت أم غربية. إنّ فنًّا كهذا من الممكن تسميته بالمثل الأعلى، فهو فن تتداخل فيه الفطرة والموهبة والمعاناة والصنعة الماهرة والدراسة والتقنية المستفيدة من التجارب الإنسانية والخبرة العملية بجانب الإحساس المرهف.. هو باختصار فن جامع شامل.

الفصل الثانى



تصميم الحديقة الاسلامية

١- اهداف التصميم

٢- النموذج السماوى

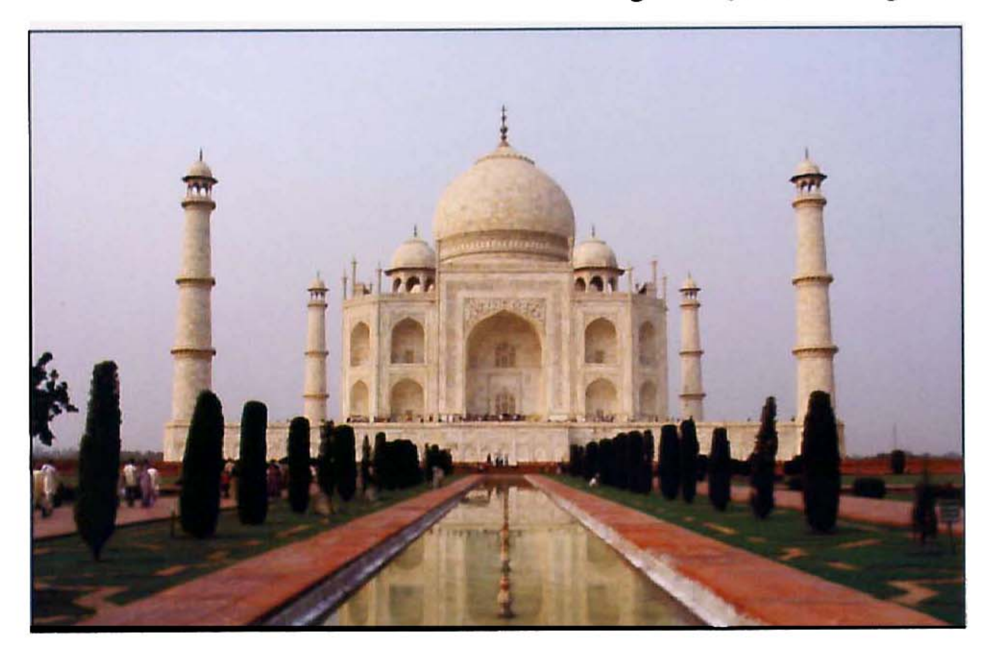
٣- البعـد الرابع فى تصميم الحديقة الاسلامية

٤- انواع الحدائق الاسلامية



١- أهداف التصميم

يتفق علماء تاريخ الفن وإخصائيو عمارة البيئة على تميز الحدائق الإسلامية فى تصميمها بطابع خاص وشخصية فريدة رغم التباعد الجغرافى بينها، ورغم اختلاف أجناس مصمميها وقوميات من أنشأها.



بستان تاج محل

يعتبرضريح تاج محل بمدينة أجرا والبساتين المحيطة به مثالاً لنضج فن تصميم الحدائق وازدهاره فى عصر الإمبراطور المغولى «شاه جاهان»

ويتعجب المستشرقون بصفة خاصة من هذا التجانس الملحوظ بالرغم من تفاوت أوقات إنشاء هذه الحدائق، كما يظهر مثلًا فى التشابه البصرى بين حدائق قصر الحمراء

التى بنيت فى جنوب أسبانيا فى القرن الثالث عشر، وحدائق تاج محل التى بنيت بمدينة أجرا بالهند فى القرن السادس عشر.

ويرد البروفيسور نورمان نيوتن أستاذ تاريخ عمارة البيئة بجامعة هارفارد فى كتابه الشهير «التصميم على الأرض ـ Design on the land» على هذه الملاحظة قائلًا:

«إن التجانس بين هذين الصرحين الإسلاميين العظيمين لا يرجع إلى تكرار التفاصيل للشكل العام أو التشابه المادى بينهما، بل إلى وحدة الروح. إن كليهما يمثل تعبيرًا رائعًا عن حقيقة عظيمة، حقيقة جمعت لأكثر من ألف عام بين أقوام عدة التفوا حول عقيدة واحدة بالرغم من اختلاف جنسياتهم وأقاليمهم، قوم واجهوا محن الزمان وتقلب الأيام وتعاقب السراء والضراء بعزيمة لا تنقطع لصيانة البيئة الطبيعية، وعشق لا يفنى لتطوير المناطق الخضراء، ومتعة لا تخفى فى التعبير عن هذه العزيمة وذلك العشق».

فليقولوا عليها ما يشاؤون وحدة روح أو عظمة الحقيقة، وليفسرو ما وراءها من عزيمة وعشق ومتعة. أما الباحث المدقق وخبير التصاميم البيئية الواعى بعملية الخلق والإبداع الفنى فسوف يصل إلى قناعة أكيدة أنه من الحتمى أن يكون وراء كل هذه الحدائق المتناغمة وكأنها سيمفونية يعزفها نفس الموسيقيين فى أزمان شتى وأماكن متباعدة، ما هو أهم من ذلك ألا وهو وحدة الهدف أو وحدة الأهداف. وبالفعل، فإنه يبدو واضحًا أن ثلاثة أهداف رئيسية قد سيطرت على خيال مصممى هذه الحدائق الخالدة وهى:

١ - توفير حدائق للمتعة المادية والروحية والفنية لأهل الدور والقصور والمدن ولضيوفهم وذويهم.

٢- صيانة الإنسان والنبات من عوامل البيئة الطبيعية القاسية المحيطة بهم.

٣- تعمير الأرض من خلال الاقتراب من نموذج الفردوس المنشود وجنات الخلد كما ذكرتها أدبيات الإسلام.

من الواضح أن استعمال الأسوار العالية حول الحديقة الإسلامية نجح فى توفير عامل الخصوصية لرب الدار وعائلته وضيوفه، كما ساعد تصميم البيوت حول صحن خارجى أو فناء مفتوح على حماية البشر والأشجار والزهور والنافورات من ضوضاء وغبار وإزعاج الشوارع المحيطة التى تحولت فقط إلى مسار حركة للمشاة والدواب والعربات.

وفى هذا النموذج تحول الفناء إلى روضة خاصة استمتع فيها الإنسان بأبهج الروائح وأزهى الألوان، وتأمل فى مشاهدة تغيرات عناصر الطبيعة حوله. فكانت الحديقة بحق هى الواحة التى يجد فيها المسلم إشباعًا لأرق أحاسيسه الروحية من تأمل وطمأنينة وتفكير وإمتاع لحواسه الجسدية من سمع وشم ولمس وظل ظليل.

ونظرًا لأن العالم الإسلامى ـ على عكس أوروبا ومعظم مناطق أمريكا الشمالية ـ يقع معظمه فى أقاليم صحراوية أو شبه صحراوية، تؤثر تأثيرًا مباشرًا على تصميم الحدائق خاصة وعمارة البيئة عامة فقد كان الرد المنطقى لتهذيب ومعالجة هذه البيئة الرتيبة الخشنة هو محاولة تقليد الطبيعة التى أعطت الواحات الخضراء فى وسط القفار الصحراوية الممتدة.

وهكذا بدأ مصمم الحدائق الإسلامية فى إنشاء أمثلة مصغرة لهذه الواحات الخضراء فى شكل حدائق خاصة ملحقة بالبيوت أو رياض ملحقة بالقصور وحدائق عامة تابعة للمساجد والمدارس والمبانى العامة والميادين الشعبية، ولهذا فلا عجب أن تشير كاتبة عربية مثل سناء الجاك فى مقال بعد زيارتها لقصر الحمراء فى مدينة غرناطة بأسبانيا أن تصميم الحدائق الأندلسية هو درس لا ينسى فى «هندسة ترويض البيئة». وإلى جانب المتعة الحسية والحماية من عوامل الطقس، فقد كانت هذه البساتين مصدرًا للفواكه بأنواعها والنباتات العطرية والطبية بأشكالها فى تعبير واضح عن رخـاء العيش وطيبات الرزق.

٢- النموذج السماوى

ورغم أهمية الإمتاع الحسى والكفاءة كمورد غذائى، فإن انفراد الحديقة الإسلامية فى السعى للنموذج السماوى هو الذى جذب أنظار العالم، ولفت انتباه المتخصصين فى عمارة البيئة وتاريخ الفنون. ففى أكثر من موضع، نجح الفنان المسلم فى التعبير خلال تصميم حديقته عن جنات الفردوس الموعـود بما قيل عنها من خصوبة وجمال واستقرار وفضاء فسيح وآفاق لا نهاية لها، بل وحرص فى هذه الروضة المثالية أن تتبادل النباتات المختلفة فى النمو والازدهار فى تتابع دائم. ومن ثم، فتبدو فى قمة جمالها وكامل ثمارها وروعة رونقها على مرور الفصول والشهور، ورغم هذا فمن الواضح أن

مصمم الحدائق الإسلامية لم يحاول فرض أنماط دخيلة أو تصاميم أجنبية على الموقع بل استوحى دائمًا شخصية المكان. وبهذا، فإن الموقع الأصلى ازداد جمالًا وثراءً بما أضافته فكرة تصميم الحدائق عليه من عناصر نباتية ومائية ومعمارية وسيكولوجية.

وبين البراعة فى ترويض البيئة من جهة واستلهام شخصية المكان من جهة أخرى، ظهر تميز الحديقة الإسلامية فى تصميمها المادى المحسوس وفكرتها الفلسفية.

فعلى النقيض من العقلية الأوروبية والغربية التى تركز على الشكل الخارجى للمبنى أو للحديقة وعلى الكتلة المعمارية، فيبدو أن التصاميم الإسلامية تعنى عناية خاصة بالفراغ المعمارى أو طبيعة وحجم وتشكيل المكان، وما يتميز به من إضاءة ومناخ محلى وتكوين فنى.

ونستطيع القول بأن أهم خصائص تصميم الحدائق الإسلامية الواضحة أنها بالفعل تمثل معادلة متوازنة بين العقل والتحكم البشرى فى البيئة الطبيعية من جانب، وبين منظومة الطبيعة وعناصرها المختلفة (كالمناخ، والنبات، والماء، وتضاريس الأرض ... إلخ) فى تصميم البيئة البشرية والموقع من جانب آخر، كل يكمل الآخر وكل يدعم الآخر، وهذه الخصوصية هى فى الواقع مايميزها عن المدارس الفنية الأخرى خاصة الأوروبية منها. فبعد خروج العالم الغربى من عصور الظلام، عاشت أوروبا فى ظل مدرستين متصارعتين فى فن تصميم الحدائق وعمارة البيئة، أحداهما فى فرنسا بقيادة Andre Le Notre والأخرى فى إنجلترا بقيادة «كابابيلتى براون ـ Capability Brown» فنجد مثلًا فى حدائق قصور «فرساى ـ Versailles» بباريس أن مصمم الموقع Le Notre قد حاول أن يعكس انتصار العقل والمنطق والمبادئ الديكارتية على الطبيعة وعبرت تصميماته عن سيطرة الإنسان على البيئة المحيطة به. بينما كانت أعمال المدرسة الرومانسية الإنجليزية بقيادة «كابابيلتى براون ـ Capability Brown» وأتباعه رمزًا قاطعًا لاستسلام الإنسان كلية (عقلًا وجسدًا) لقوى البيئة المحيطة به.

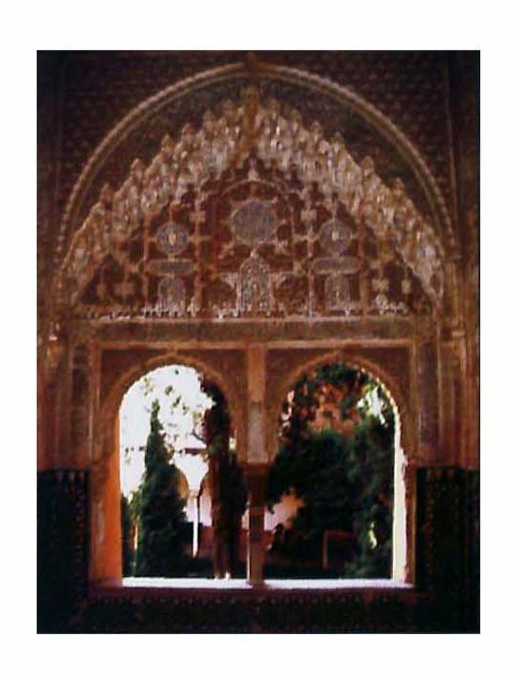
وبالمقارنة العلمية، نجد أن الحديقة الإسلامية قد برزت من منطق آخر مختلف عن مدرستى أوروبا المتناحرتين، ولعل ميزتها تعكس الدور الذى قدره الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة أن تلعبه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] حيث تقع فى نقطة توازن بين سيطرة الطبيعة وسيطرة الإنسان.

٣- البعد الرابع فى تصميم الحديقة الإسلامية

وأخيرًا وليس آخرًا، تميزت الحدائق الإسلامية عامة وحدائق بلاد الأندلس بصفة خاصة بقاعدة فنية جديدة غيرت قواعد التصميم وعمارة البيئة بشتى أنحاء العالم، وهى العناية القصوى بتوفير محور بصرى عند نقاط معينة فى الحديقة للسماح بمشاهدة المناظر البعيدة للبيئة المحيطة وإعطاء محاور بصرية بانورامية للفراغات.

وقد كانت هذه القاعدة امتدادًا لقواعد التصميم المعمارى فى هذا العصر والتى استعملت تشكيلات الجدران والبوابات والنوافذ والدهاليز والمشربيات والعقود والقباب للتحكم فى ما يشاهده أهل الدار وضيوف القصر من مناظر محيطة ومساحات خضراء وأماكن مفتوحة مثل الأسواق العامة، وساحات المسجد الجامع، والمتنزهات العامة، والبساتين الملحقة بالمقابر والأضرحة المهمة.

وقد انتشر هذا الاهتمام بالتحكم البصرى للمناظر التى يشاهدها زائر الحديقة الإسلامية فى الكثير من أعمال دولة الأمويين وأمراء الطوائف والمرابطين والأمراء الناصريين، ثم انتقلت إلى بلاد شمال أفريقيا وظهرت بوضوح فى تصميم مدرجات قلعة



قصر الحمراء بمدينة غرناطة

تمكن مهندس عمارة البيئة فى هذه المجموعة من الحدائق والمبانى من النجاح فى التحكم المرئى، لتقديم دراما لمشاهدة البيئة المحيطة من خلال إطار معمارى كالنوافذ والمشربيات.

دار البحر لأسرة آل حماد بالمغرب، كما ظهرت فى وسط آسيا لاحقًا فى قصر Laskkar-Basar فى أفغانستان. وبالرغم من ذلك فتظل حدائق قصر الحمراء هى النموذج الأمثل لنجاح المصمم فى التحكم المرئى؛ حيث تمكن من تقديم نوعين من دراما المناظر:

١- مشاهد البيئة الطبيعية المحيطة التى دائمًا ما يتم مشاهدتها على بعد من خلال إطار معمارى كنافذة أو شرفة أو مشربية.

٢- مشاهد الحديقة الداخلية والمكونة من مصاطب متدرجة يلعب فيها عنصر الرمز دورًا كبيرًا من خلال مفردات عمارة البيئة من نافورات مياه، وأشجار وزهور، وتبليطات وجدران وأكشاك، وتكعيبات للنباتات المتسلقة.

ولا شك أن مثل هذا النجاح أمر متوقع؛ حيث يبدو واضحًا مهارة الفنان فى الحشد والتنويع لمفردات التشكيل الفنى لهذه الحدائق، وتمكنه الفذ فى التخطيط المسبق لمسارات حركة زوار الحديقة ـ أو ما نسميه بالبعد الرابع ـ بحيث تتعاقب عليها المشاهد المختلفة سواء خارجية أم داخلية، كما تتتابع مشاهد وفصول مسرحية ما أو حركات مختلفة فى كونشرتو موسيقى عذب ورقيق تتدافع أنغامه من قوة وسرعة إلى بطء ورصانة، ومن إيقاع راقص إلى جملة عميقة.

ويلاحظ هذا التشكيل الرشيق كل زائر لحدائق الحمراء أو جنات العريف فى غرناطة، فيشاهد متتابعة من الألوان والنغمات والنور والظلال والماء والعطر، فنحن أمام صرح تخطى فيه الفنان حدود الزمان والمكان ليبلغ مستوى من الشمولية الإنسانية فيرضى جميع النفوس ويهز مشاعر مختلف الطبقات، بدائية كانت أو راقية، شعبية كانت أو مثقفة، شرقية كانت أو غربية.

إن فن تصميم الحديقة الإسلامية بمثل هذه المميزات يمكن تسميته بالمثل الأعلى للفن، ومن المهم الإشارة إلى أن هذا يعتبر شيئًا نادرًا عبر تاريخ البشرية فى مجالات الرسم والنحت والموسيقى والعمارة، فالمثل الأعلى للفن ينتج تاريخيًّا عن تداخل الفطرة والموهبة والمعاناه والصنعة والدراسة التقنية المستفيدة من التجارب الإنسانية والخبرة التى تعكس الجانب العلمى فى أى من الفنون الجميلة.

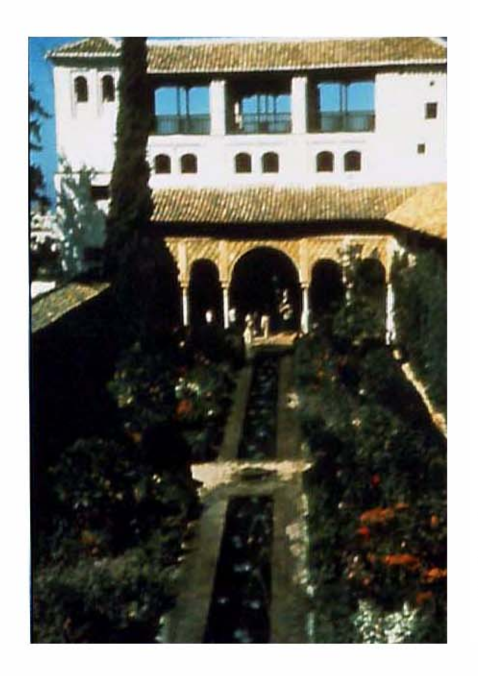
وقد لخص مؤرخ عمارة البيئة الإنجليزى «جيفرى جيليكو ـ Jeffery Jellico» فى كتابه

الشهير «عمارة البيئة الإنسانية ـ Landscape Of Man» تفسيره لنجاح الفنان المسلم فى التحكم البصرى من خلال «تصميمه للحديقة الإسلامية وابتعاده الإرادى والمتعمد بعض الأحيان عن التماثل فى تشكيلاته الفنية حتى يتطور الإدراك الحسى تدريجيًا فى العقل بدلًا من المشاهدة المباشرة التى تسهل عبورها من خلال الحواس وببساطة ذهنية فطرية».

٤- أنواع الحدائق الإسلامية

بالرغم من زوال معظم الحدائق الإسلامية التاريخية، وسوء صيانة بعض هذه الحدائق القائمة، فقد استطاع الباحثون والدارسون لهذا المجال أن يشكلوا فكرة جيدة عن أنواع ومميزات وأوصاف الحدائق الإسلامية فى إيران وكشمير والهند وبلاد الأندلس، ولا شك أن كتابات الرحالة العرب مثل ابن بطوطة والإدريسى والمقريزى، والرحالة الأوروبيين قد ساهمت بدرجة كبيرة فى معرفة الكثير عن مواقع وأوصاف وقواعد تخطيط الكثير من الحدائق الإسلامية التى زالت على مر السنين أو أعيد تشكيلها أو تغييرها عن بادئ عهدها.

ويجدر القول هنا أنه رغم أن الحدائق الإسلامية المشهورة التى تم الحفاظ عليها إلى يومنا هذا أكثرها من حدائق القصور والسرايات الخاصة بالأمراء والملوك وعلية القوم أو لأضرحتهم ومقابر موتاهم، إلا أن كتابات الرحالة المختلفة تؤكد أن الحديقة الإسلامية لم تكن حكرًا على هذه الصفوة من الأثرياء والطبقات الحاكمة، بل إنها وُجدت على نطاق واسع فى كثير من دور الأهالى، ولكن بمساحات صغيرة نسبيًا خاصة فى حدائق الصحن الملحقة بكثير من بيوت عامة الشعب. ويعتبر الصحن أو الفناء نوعًا من الشكلين الأساسيين للفراغات الخارجية الخضراء التى تشملها دراسات عمارة البيئة، التى نطلق عليها تعميمًا لفظ الحديقة. لكن العرب فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية عامة وحقل عمارة البيئة بصفة خاصة كان لهم تعريفات أكثر دقة فى تصنيف وتحديد أنواع هذه الفراغات الخارجية الخضراء. وعلى سبيل المثال، فقد عرَّفوا الحديقة بأنها بستان حوله حائط أو جدار ويحتوى على روضة أو رياض متعددة. والروضة هى مكان تجمع المياه فى مساحة مزروعة (التى يشير لها الفلاح فى يومنا هذا بحوض الرى). وقد عرف العرب الجنة تحديدًا بأنها الحديقة ذات الشجر، وذلك لأن الأشجار تستر الأرض بظلالها. أما إذا استعملت فى الأدبيات الدينية فيقصد بها دار النعيم فى الآخرة أو الفردوس.



حديقة الصحن

يتميز هذا النوع من الفراغات المفتوحة بإحاطته بعناصر المبنى المختلفة وغرفات المنزل وأسواره، وقد يطلق عليه اسم الفناء مثل حديقة «جنة العريف» بغرناطة.

وفراغ الصحن دائمًا محاط بعناصر المبنى المختلفة أو غرفات المنزل وأسواره ويتميز بالآتى:

* ينتشر فى المدن المزدحمة بالسكان.

* تغلب عليه التبليطات الأرضية والعناصر المعمارية مثل التكعيبات، والعقود، والمظلات.

* يحتوى على بعض النباتات من أشجار وزهور ونباتات متسلقة.

* يجمع بعض العناصر المائية، مثل الآبار والنافورات.

* يتميز بصغر المساحة نسبيًا.

* يتمتع دائمًا بمناطق ظليلة نتيجة لوجود المبانى المحيطة أو من خلال بناء تكعيبات وأكشاك لتوفير الظل لمستعملى الصحن.

* يتخذ فى أغلب الأحيان شكلًا مربعًا.

أما ما أطلقنا عليه مسمى البستان فهو يتميز بالآتى:

* ينتشر أساسًا فى الضواحى والأرياف.

* يغلب عليه المناطق الخضراء والنباتات والزهور.

* يستخدم عنصر الماء فى أغلب الأحيان فى صورة نافورات، أو شلالات، أو جداول، أو قنوات بأشكال مختلفة.

* يتميز البستان باتساع المساحة ويحيط أساسًا بضريح مهم ـ مثل «تاج محل ـ Taj Mahal» ـ أو استراحة أو قصر صيفى أو خيمة لتوفير بعض الحماية من تقلبات الطقس لزوار المكان مثل بستان «شار باغ ـ char bagh» فى إيران، أو بستان تيمورلنك بمدينة سمرقند الذى بلغت مساحته(٣٥٠ × ٥٠٠ متر).

* يعكس فى كثير من الأمثلة شخصية المكان والطابع الإقليمى للموقع.

* يغلب على تشكيله الفنى فكرة الفردوس المنشود.

* يتخذ فى أغلب الأحوال شكلًا مستطيلًا، وينقسم إلى أربعة أقسام متساوية فى إشارة رمزية إلى جنات الخلد الأربعة، ويفسر الكثير من أساتذة تاريخ الفنون الإسلامية والباحثين فى عمارة البيئة عند المسلمين أن التقسيم النمطى للكثير من الحدائق الإسلامية إلى أربعة أقسام يعود إلى جذور دينية تنبع من تفسير الآية القرآنية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وبناءً على هذا التصور الذهنى فى خيال الفنان المسلم، انقسم البستان إلى أربع رياض يفصلها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، وكل حديقة مخصصة لفئة من الفئات الأربعة الموعودة بالجنة؛ أى: الأنبياء، والصديقين (أو أوائل من انضم للدعوة) والشهداء، والصالحين.

والواقع أن هذين النوعين من الحدائق الإسلامية يمكن رؤيته جنبًا إلى جنب فى «مجموعة قصر أصفهان». وتعتبر مجموعة قصر أصفهان الكبير فى إيران أنسب الأماكن لمشاهدة هذين النوعين من الحدائق الإسلامية جنبًا إلى جنب، كما تعتبر جزيرة الروضة

الواقعة بجوار الصرح الأثرى لمقياس النيل بمدينة القاهرة من أهم الدلائل على أن الحدائق والمنتزهات كانت جزءًا من النسيج العمرانى للمدينة الإسلامية فى الماضى.

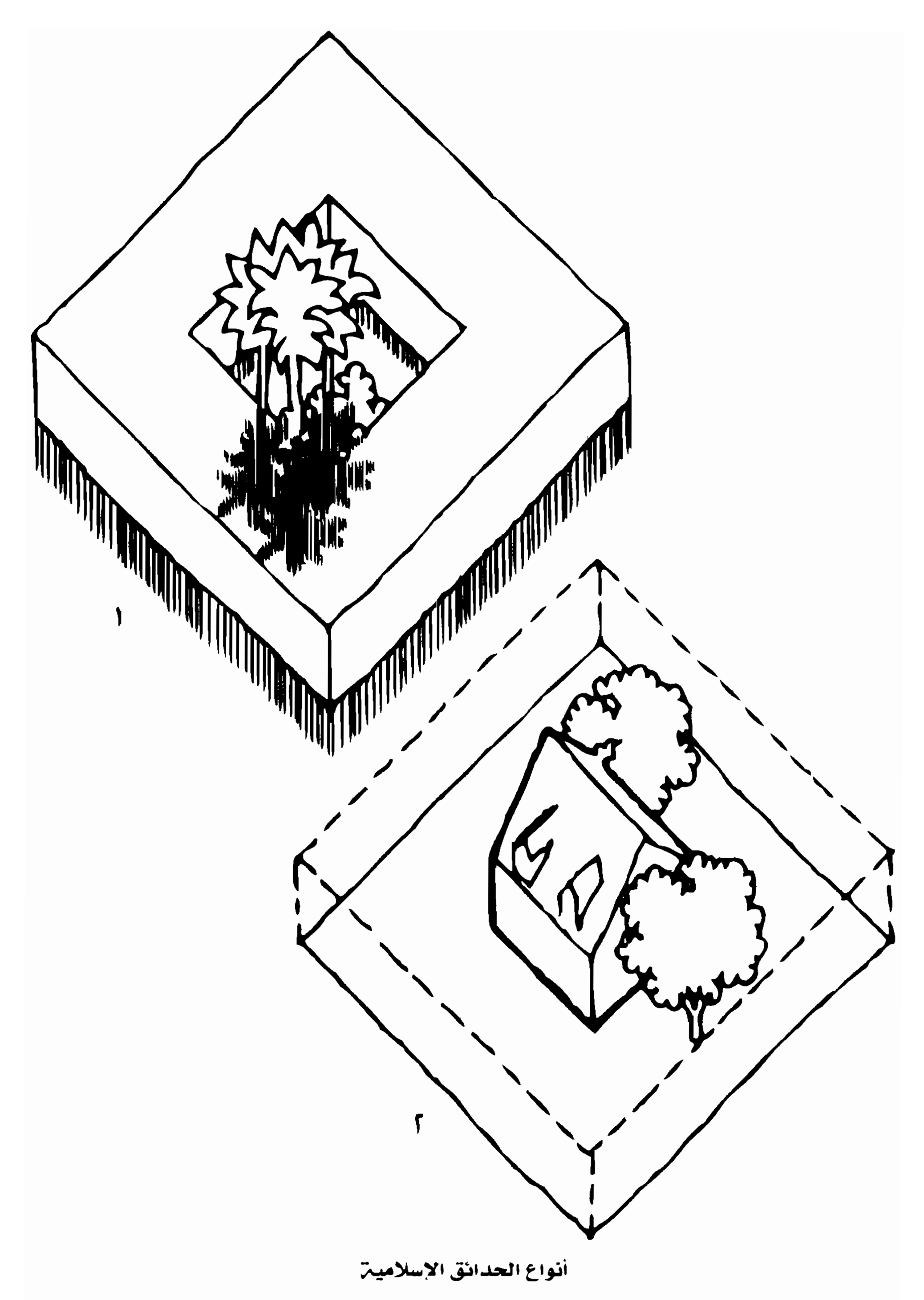
وقد أكد الكثير من الباحثين فى خصائص المدنية العربية هذا الاعتقاد؛ حيث أشاروا إلى أن فى عصور الإسلام المزدهرة تم إنشاء شبكة من الحدائق تخللت أنحاء المدينة. ولعل المؤلف المشهور وأستاذ علوم عمارة البيئة «جاريت إكبو ـ Garrett Eckbo» كان أكثرهم تفصيلًا فى شرح هذه النقطة عندما ذكر فى أحد كتبه:

«نستطيع مشاهدة أمثلة ممتازة من الحدائق فى وسط آسيا، وشمال الهند، وجزيرة العرب، وشمال أفريقيا، وأسبانيا وكل هذه الحدائق كانت حدائق مغلقة محوطة بأسوار أو مبانٍ تحميها من رمال الصحراء وخشونة الطقس، ويعتبر خلط الطبيعة بالبيئة العمرانية هو أحد مميزات المدينة العربية القديمة، فقد خلطت الكتلة العمرانية بعناصر الطبيعة المختلفة من جبال وأنهار وغابات وتلال».

وبناءً على هذه النظرة العامة أو المسح التاريخى والجغرافى لحدائق بلاد الفرس خلال تعاقب الدول على حكمها بدءًا من الدولة الغزنوية ثم التيمورية، وأخيرًا الصفوية وحدائق المغول فى شبه القارة الهندية، وحدائق الأندلس أثناء عصر الأمويين ثم ملوك الطوائف والدولة الناصرية، نستخلص أنه بالرغم من اقتصار الشكل العام للحدائق الإسلامية على الصحن والبستان إلا أن الأهداف الانتفاعية والفكرة الرئيسية تنوعت من حالة إلى أخرى؛ لذا فقد ذكرت لنا الوثائق التاريخية أنواعًا مختلفة من الحدائق مثل:

* حدائق الدراسة والقراءة والمعرفة.
* حدائق التأمل والتفكر والعبرة.
* حدائق الخلود، وتضم أضرحة الملوك وشيوخ الطرق الصوفية والأولياء الصالحين وشهداء الأمة.
* حدائق القصر.
* حدائق الشعب، وتضم المتنزهات العامة.

وسوف يرد ذكر هذه الأنواع وغيرها بالتفصيل فى الفصل الخاص بأمثلة الحدائق فى العالم الإسلامى عبر التاريخ.

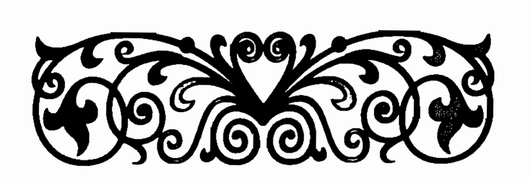


أنواع الحدائق الإسلامية

من الممكن تقسيم الحدائق الإسلامية إلى نوعين أساسيين من حيث تشكيل الفراغ المعمارى: الأول: هو حديقة الصحن. والثانى: هو البستان.



الفصل الثالث



عناصر الحديقة الاسلامية

١- الماء والهندسة المائية

٢- النباتات

٣- الأسوار والجداريات

٤- الزخرفة والارابيسك والخط العربى



لم تكن بيئة الصحراء عقبة أمام استخدام الفراغات المفتوحة لأغراض انتفاعية أو جمالية أو اجتماعية. وكما ذكرنا من قبل فقد تنوعت المناطق الخضراء بين بساتين مفتوحة وحدائق محوطة بأسوار أو صحون محوطة ببيوت وقصور. وبالرغم من هذا التنوع فى أصناف هذه المناطق الخضراء، إلا أنها تميزت دائمًا ببراعة باهرة فى تكوينها الفنى، وقدرة ملحوظة على التعامل مع البيئة المحيطة، ومهارة فائقة فى اختيار العناصر وتقرير موقع كل منها على الأرض وتحديد علاقته بالعناصر الأخرى. وكما هو معروف فنيًّا فإن معايير النجاح لأى تصميم ـ سواء كان حديقة أو مبنى معماريًا أو حيًا عمرانيًا بكامله ـ لا تتغير، وتشمل دائمًا الفوائد الانتفاعية والمتعة الجمالية والقدرة على التكيف مع البيئة الطبيعية المحيطة. وبناءً على مثل هذه المعايير الأساسية لمبادئ التصميم، فإنه من الممكن الحكم على الكثير من الحدائق الإسلامية التاريخية بأنها قد استطاعت أن تتحدى حاجز الزمان والمكان، وظلت عبر السنين نموذجًا لنجاح التصميم من خلال عناصرها الفنية التى شملت العديد من الفنون الجميلة، وخاطبت شتى حواس ومشاعر الإنسان. وتشمل هذه العناصر جوانب أساسية كجمال منظومة العمل الفنى، ونوعية الفراغ، وطبيعة شكله، وملمسه، ونسيجه، وإضاءته، وديناميكية الحركة فيه.

أما من حيث التكيف مع البيئة المحيطة وترويض الطبيعة وملامسة النفوس البشرية، فقد أعطت الحديقة الإسلامية لزائرها الكثير من المتع الحسية كمشاهدة ألوان الزهور والورود، وسماع تغريد الطيور والعصافير ،والاستراحة فى الظل الظليل. واستنشاق الروائح الفيحاء، ورؤية جمال الأفق لحظات الشروق والغروب. كما كانت مصدرًا للتأملات الروحية عندما يأتى الربيع ويشع الأمل فى القلوب، وعندما يزحف الخريف أو تهب رياح الشتاء الباردة، وتعم الأشجار الخالية من الأوراق والزهور فيتذكر المرء دورة الحياة والموت، ولا عجب إذًا أن الحدائق والبساتين كانت دائمًا مصدر وحى وإلهام للكثير من شعراء وأدباء العصور المزدهرة للإسلام، وخاصة الذين كانوا قريبين

من بلاط الأمراء وأغنياء المجتمع ممن أنشأوا مثل هذه الأماكن الخضراء كجزء من دورهم وقصورهم.

ولذا يرجع الفضل فى تخيل الصورة الذهنية لحدائق دولة الأندلس ـ على سبيل المثال ـ التى انقرضت أو انطمست معالمها إلى وجود مخطوطات تاريخية احتوت على قصائد ورسائل وتواشيح من هذه الحقبة الزمنية تصف أو تتغزل فى بعض هذه الحدائق، وقد اعتمد بعض الباحثين فى تاريخ الفنون الإسلامية على هذه الأعمال الأدبية اعتمادًا كبيرًا لتدوين وتحليل وشرح هذه الحدائق فى دراستهم عن فنون الإسلام. أما من حيث العناصر الانتفاعية التقليدية فى تصميم البستان أو الحديقة أو الصحن، فقد شملت أربعة عناصر أساسية وهى:

* الماء والهندسة المائية.

* النباتات.

* الأسوار والجداريات.

* الزخرفة والأرابيسك والخط العربى.

١- الماء والهندسة المائية

يعتبر استخدام الماء كعنصر أساسى فى تصميم الفراغات الخارجية من أهم مميزات الحديقة الإسلامية فى الفترة المزدهرة من تاريخ الدولة الإسلامية وعلى سبيل المثال:

(أ) كان استخدام الماء فى نافورات بصحن الدار وسيلة لترطيب الجو وتنقيته من الأتربة فى الوقت نفسه.

(ب) وكان استخدامه فى الميادين العامة والمساجد لأغراض انتفاعية كالشرب، والوضوء، ورى الأشجار.

(ج) وفى بعض الأمثلة، استخدم الماء لأغراض جمالية تتعلق بتصميم الموقع مثل تأكيد أهمية بعض المبانى الرئيسية وضخامتها بانعكاس واجهتها على سطح الماء، أو اجتذاب الطيور والعصافير بما لها من أصوات جميلة تضيف إلى روعة المكان حركة وحياة.



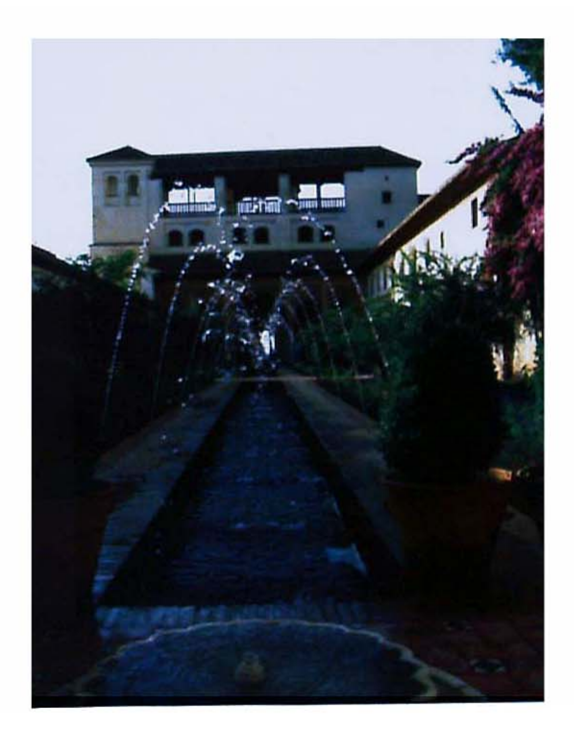
بستان شالامار

تنوعت أشكال النافورات والفسقيات فى حدائق المغول الاسلامية، ولكن استعمال حركة المياه المتساقطة على مصاطب متعددة الارتفاع تعتبر ابرع اضافتهم الفنية لحقل تصميم الحدائق.

(د) أما استعمال الماء خلال النافورات، فقد كان أيضًا مفيدًا لعدة أغراض منها إضافة حركة مشوقة فى وسط فراغات قد يسودها الصمت والجمود إذا تركت خاوية بدون معالجة ذكية وجذابة، كالذى نراه فى قصر الحمراء بغرناطة مثلًا.

(هـ) أما الشلالات الصغيرة والماء المتدفق من مستويات مختلفة، فقد استعمل صوت خريره كقناع للضوضاء الصادرة من الطرق العامة المحيطة.

والشاهد أن العناصر المائية تنوعت فى أشكالها واستعمالاتها خلال عصور ازدهار الإسلام لدرجة أنه أصبح من الصعب على الزائر أن يستمتع بمشاهدة أى جزء من أجزاء الحديقة دون أن يقع نظره على عنصر مائى أو يسمع خرير قطرات مياه. وشملت هذه العناصر الينابيع والآبار والجداول والعيون والقنوات، والفسقيات والنافورات والأحواض والبرك والأسبلة، وقد زاد على هذه الحصيلة نوع جديد من النافورات عندما استعمل للمرة الأولى فى حدائق جنات العريف بمدينة غرناطة الأندلسية، وهى نافورة القبة المائية أو «النافورة النفاثة ـ Jet Fountain».



نافورة جنات العريف

كان استعمال الماء من خلال النافورات وسيلة ذكية لإضافة حركة مشوقة للفراغات أو لتوفير قناع للضوضاء الصادرة عن الطرق والأسواق المحيطة.



نافورة صحن الأسود

ساعد استخدام نافورات المياد فى صحن الدور والقصور على ترطيب الهواء وتنقيته من الاتربة. وفى قلعة
حمراء، تتحرك المياد خلال أجنحة القصر على شكل قنوات تجرى تحت الممرات، وتتدفق إلى أحواض فى
الغرفات قبل عودتها الى الصحن الخارجي.

أما البساتين المفتوحة والمتنزهات العامة والحقول الزراعية، فقد ضمت عناصر مائية أخرى كالسدود والقناطر والسواقى والصهاريج، التى أضافت لمثل هذه الأماكن المفتوحة علامات معمارية خاصة تعطى لكل منها شخصية متميزة. والمعروف تاريخيًّا أن عنصر النافورات بشكل خاص كان رمزًا معروفًا ومتفقًا عليه بين مسلمى الأندلس على عصور الرخاء وفترات السعة لأهل هذه المدن.

وعمومًا، فقد بلغ علم الهندسة المائية عند المسلمين والعرب فى عصور الازدهار درجة متقدمة من التطور، حتى أصبح الماء هو العنصر الأساسى فى الحدائق والبساتين، فهو متوفر دائمًا وفى أشكال متعددة فيها الكثير من الابتكار، فقد صممت القنوات المائية بحيث تخترق الرياض المختلفة فى كل حديقة أو بستان، ولا يقتصر دور الماء فى الحديقة الخارجية فقط، بل يتحرك خلال الغرف وأجنحة المبنى على شكل جداول صغيرة تجرى فى أنابيب أو مواسير تحت ممرات القصر، حتى تتدفق إلى الأحواض الموجودة فى القاعات أو تندفع تحت الأروقة ومنها تعود إلى حديقة الصحن.

وقد تنوعت أشكال النافورات، ففى جنات العريف نجد أن المياه ترتفع من عدة نافورات على جوانب بركة وسطى لتلتقى فى شكل أقواس كأنها قناطر تتلألأ تحت وهج شمس الأندلس، ويعرف هذا التشكيل بالقباب المائية. وفى مثال آخر، نجد أن حركة المياه تنتج من نافورة يتساقط ماؤها على مصاطب مختلفة الارتفاعات كأنها درج، ويسيل الماء من أعلى إلى أسفل عند كل فسحة درج، بينما فى تصميم آخر نجد أن الفنان قد استخدم درابزين مجوّفا عند كل مسكب للمياه؛ مما يسمح للمياه أن تتدفق بسرعة لتجرى بعد ذلك فى الهواء الطلق وتتساقط فى قنوات من القرميد المجوف، ويجب الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من الاستعمالات الكثيرة للمياه وتنوع عناصرها فى أغلب الحدائق الإسلامية إلا أن الالتزام بالاقتصاد فى استخدام الماء كان شيئًا ملحوظًا ومفهومًا ومتفقًا عليه، وينبع من توجيهات واضحة فى القرآن والسنة النبوية بهذا الشأن، فالماء مصدر الحياة فى الدنيا، وضرورة أساسية لأركان الإسلام وعبادته، مثل الوضوء والطهارة وغسل الميت والتنظيف من كل نجاسة .

٢- النبـاتـات

لعله من النادر فعلًا أن نجد وعيًا واسعًا بعلم النبات من جهة، وتطبيق قواعد هذا العلم على فن تصميم الحدائق والبساتين من جهة أخرى فى أى حقبة تاريخية، كما وجدناها فى عصور الدولة الإسلامية فى بغداد والأندلس ودولة المغول فى شبه القارة الهندية.

وعلى سبيل المثال، فعندما يتصفح المؤرخ مختلف الكتب والدراسات التى بحثت وحللت أحوال الزراعة والنبات فى بلاد الأندلس ما بين القرنين التاسع والخامس عشر، فيمكنه أن يستشف بوضوح ما نال هذين العلمين من عناية بالغة، وما وصلت إليه البحوث والتجارب الزراعية والنباتية من مستوى رفيع، ويقول المستشرق الألمانى «ماكس مايرهوف ـ Max Meyerhoff» فى هذا الصدد:

> «لقد كانت البذور تجلب من الشرقين الأدنى والأوسط؛ حيث تجرى عليهما التجارب التطبيقية قبل زراعتها، وكانت تقارن الأصناف المختلفة من النبات الواحد وتدرس خصائصها الزراعية الطبية والبيئية».

والواقع أن اهتمام المؤلفين المسلمين بعلم النبات قد بدأ فى القرن التاسع الميلادى حينما وضعوا هيكلًا لمصنفاتهم باللغة العربية فى سائر العلوم والفنون بعد قيام الدولة العباسية فى بغداد، ويعتقد المؤرخون أن الرعيل الأول من المؤلفين فى هذا العلم كان يضم علماء مثل:

* عبد الملك بن عبد العزيز البصرى، المتوفى عام ١٤٠ هـ ومؤلفه الشهير (النبات).
* ربيع بن صبح، المتوفى عام ١٦٠ هـ.
* جابر بن حيان، المتوفى عام ٨٠٣ هـ ومؤلف «رسائل فى علم النبات والفلاحة».
* ابن ليون، المتوفى عام ١٢٨٢م ومؤلف كتاب «إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة فى أصول صناعة الفلاحة».

ومن الطريف أنه حتى علماء اللغة العربية فى عصور الإسلام الأولى اهتموا بالنباتات وجمعوا معلومات عن أشكالها وخواصها ومن بين هؤلاء:

* الخليل بن أحمد الفراهيدى، المتوفى عام ١٨٠ هـ.

* أبو زيد الأنصارى، المتوفى عام ٢١٥ هـ.
* ابن السكيت، المتوفى عام ٢٤٣ هـ.
* الأصمعى الذى ألف كتاب «النبات والشجر» والمتوفى فى عام ٨٢٨م.
* على بن ربان الطبرى، المتوفى عام ٢٤٥ هـ، ومؤلف كتاب «فردوس الحكمة».
* أبو حنيفة الدينورى، المتوفى عام ٢٨٢ هـ، ومؤلف الموسوعة المشهورة «كتاب النبات» الذى تميز بدقة وصفه لكل أنواع النباتات المعروفة، وقد بقى بعض أجزاء منه حتى الآن فى المكتبات التاريخية.

وساهم أيضًا المفكرون العرب خلال القرن الرابع للهجرة فى الإضافة لعلوم النباتات؛ حيث خصص إخوان الصفا إحدى رسائلهم لوصف النباتات وذكر أنواعها، ومن خلال تأملات فلسفية تعرضوا للأعداد الرمزية لأجزائها. أما ابن سينا، فقد عالج فى كتابه «الشفاء» من خلال عرضه فى قسم الفن السابع من الطبيعيات موضوع أنواع النباتات من الناحية العلمية والفلسفية.

ولعل أهم المؤلفين من وجهة نظر أهداف كتابنا هذا عن تصميم الحديقة الإسلامية هو رشيد الدين الصورى، المتوفى فى الأندلس عام ٦٣٩ هـ، وقد أشار إليه بإسهاب أحد كتب التراث الأندلسى، الذى ألفه أبو القاسم الوزير، والسبب الأول والأساسى وراء هذا الاقتناع أن الصورى هو أول من اعتنى بتدوين وتوثيق وتوصيف التكوينات الجمالية لكل نبات عبر الفصول الأربعة من حيث الشكل والملمس والألوان، وقد ابتكر لدراسته هذه التى تعتمد على دقة الملاحظة وحسن المعاينة لكل فصائل النباتات منهجًا خاصًّا ليساعده على جمع المعلومات وتدوينها، فقد كان يستصحب معه فنانًا يجيد الرسم ومزوّدا بالأصباغ على اختلاف أنواعها، ويزور الأماكن التى تكثر فيها النباتات ليشاهدها ويحققها ثم يريها للرسام طالبًا منه تقدير لونها ومحاكاة أوراقها وأغصانها. وقد قام الصورى بتكرار هذه الزيارات مع مساعديه من فنانين ورسامين؛ كى يسجلوا كل نبات وإنتاج صور له فى أثناء طراوته فى الربيع ووقت نضوجه فى الصيف وفى أثناء يبسه فى الخريف ثم الشتاء.

وقد نتج عن هذه الدراسة أرشيف هائل من الصور التى تمكن الدارسين من تحقيق وتمييز أى نبات يرونه فى أى بقعة جغرافية، وخلال أى فصل من فصول السنة الأربعة.

وبالرغم من الوسائل العلمية الحديثة مثل Palynology قد تساعد على التعرف الدقيق على أنواع النباتات التى استخدمت فى الماضى بكل حديقة من الحدائق الإسلامية التاريخية، إلا أنه يبقى دائمًا الاحتياج الأكبر لموهبة التخيل لتصور التكوين المرئى العام، وإلى الاعتماد على الوصف المدون فى الكتب التاريخية وأدبيات الرحالة المشهورين.

ويستطيع الباحث المدقق أن يجد كثيرًا من المعلومات عن النباتات المستعملة فى زمن إنشاء الحدائق الإسلامية الشهيرة من خلال تراجم معاصريها، فمثلًا فى مذكرات أول أباطرة الدولة المغولية الإسلامية «بابور ـ Babur» نجد ذكرًا مفصلًا عن الحدائق التى أنشأها فى عهده بكشمير وأجرا، وفى مذكراته نجد أيضًا رسومًا توضيحية لأنواع الأشجار والزهور والأعشاب المستعملة فى هذه الحدائق مع تخطيط عام للموقع.

ويبدو واضحًا أنه اعتنى عناية خاصة بأشجار الفواكه كالبرتقال وكروم العنب؛ لفوائدها الغذائية ولأنها تضيف عبقًا عطرًا للهواء المحيط بالدور والقصور والضياع الملحقة بها، هذا إلى جانب أنها تجذب أنواعًا معينة من الطيور التى تضيف بأصواتها المطربة أنغامًا يسعد بها أهل الدار وجيرانهم والعابرون على السـواء.

كما يشير بعض مؤرخى الفنون الإسلامية من المستشرقين إلى أن أحد أهم مصادر التعرف على أشكال ومميزات الحديقة الإسلامية فى الأندلس اللوحات والرسومات التى يحويها المخطوط التاريخى الشهير «بيـاد ورياض» والمحفوظ حاليًا فى مكتبة الفاتيكان فى روما، وكل هذه اللوحات من الرسومات المصغرة جدًا Minature.

وعمومًا فمن الممكن القول إن لدينا اليوم كمًا هائلًا من المعلومات عن أنواع استعمالات النباتات فى الحدائق الإسلامية التاريخية من خلال جداول الزراعة، وبحوث النباتات، وكتيبات دليل الفلاحـة للمحاصيل المختلفة فى الدولة الإسلامية بالأندلس فى الفترة ما بين القرن العاشر إلى نهـايـة القرن الرابع عشر. وقد كانت هذه المنشورات متداولة بين كبار ملاك الأراضى وأفراد العائلات الحاكمة والأمراء وفئة العلماء وموظفى البلاط الملكى وغيرهم من أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى الأندلس. ولعل إنشاء الحدائق النباتية أو ما يسمى الآن «Botanical Garden» قد بدأ فى العصور الإسلامية بأسبانيا، فقد أنشأ الأمير المأمون الأندلسى فى القرن الحادى عشر حديقة نباتية جامعـة على ضفاف نهر التاجه بالقرب من مدينـة «أشبيلية ـ Seville».

وقد عهد الأمير برعاية هذه الحديقة إلى الطبيب وعالم النباتات المشهور ابن وافد. وقد قام ابن وافد بجلب النباتات من أنحاء العالم لغرسها ودراسة فوائدها الطبية والاقتصادية، وقد عرفت هذه الحديقة ببستان الناعورة. ومن العناصر المثيرة للانتباه القبة المائية الكبيرة التى تم إنشاؤها فى هذا البستان، ومنها تتوزع المياه إلى أنحاء الحديقة حتى تصل لقصر الأمير المأمون فى منتصف الأرض.

ويجب الإشارة إلى أن البحث العلمى العربى الأول الذى تطرق لعلوم الزراعة والنبات بطريقة منهجية هو كتاب «الأزمنة» للفيزيائى يوحنا بن مسكويه الذى أعقبه تلميذه حنين بن إسحق. وفى بداية القرن العاشر، انتشرت كتابات أحمد بن أبى بكر ابن وحشية عن الفلاحة فى الحضارة النبطية، وقد جمعها تلميذه أحمد بن الزيات فى مرجع ملخص ووافٍ. ومن بداية القرن العاشر حتى نهاية القرن الخامس عشر، تبلورت الطفرة فى البحوث والدراسات الحدائقية عبر بلاد الأندلس فنشر كتاب «الفلاحة» لأبى زكريا بن عوام، الذى يتألف من ٣٥ فصلًا استعرض فيها ٥٨٥ نباتًا بما فيها ٥٥ من الأشجار المثمرة، كما تزامن ذلك مع نشر كتاب «الصيدلة الزراعية وطب النباتات» بقلم ابن البيطرى. وتعاقبت بعد ذلك المؤلفات مثل «بغية الفلاحة فى الأشجار المثمرة والرياض» للعباس بن على، ويلقى الأضواء فيه على الزراعة فى بلاد اليمن، وكتاب «الأخبار والأعطار» للوزير الفارسى رشيد فضل الله، ويشرح التقاليد الزراعية لبلاد فارس، وأيضًا كتاب «مباهج الفكر» للباحث جمال الدين المكتبى، الذى شرح فيه قواعد علم التربة.

ونعتقد أن هذه الطفرة المعلوماتية الواضحة فى التأليف والنشر فى علوم النبات والحدائق وكافة حقول المعرفة والفنون الأخرى كان لها علاقة وثيقة باستجلاب صناعة الورق فى القرون الأولى من الفتح الإسلامى لبلاد شرق آسيا، ومن المعروف أن هذه الصناعة قد دخلت بلاد الأندلس فى بداية القرن العاشر، ولا شك أن هذا كان أحد الأسباب المهمة التى مكنت الأمير الحكم من إنشاء مكتبته الضخمة التى يقال: إن فهرس محتوياتها وصل إلى ٨٨٠ صفحة.

وبتطور صناعة الكتب، أصبح من السهل تجديد وتنقيح جداول الزراعة وأبحاث النباتات ودلائل وإرشادات تقنية الفلاحة.

وبالرغم من أن الابتكارات والتقنيات التى استخدمت فى الزراعة وإنشاء الحدائق فى الأندلس كان الكثير منها معروفًا للحضارات السابقة إلا أنه من الواضح أن الفتح الإسلامى لأسبانيا أدى إلى تحولات ضخمة وجذرية فى قطاع الزراعة واقتصاديات الريف، ويرجع ذلك إلى دقة وكفاءة مجموعة الحوافز والقوانين التى أصدرتها دار الحسبة لتنظيم الدولة الإسلامية واستعمالات الأراضى بها، وشمل ذلك تدوير المحاصيل والرى والتسميد والاستزراع والتهجين. كما تجدر الإشارة إلى أن حقل تصميم الحدائق والبساتين بصفة خاصة، وعلم النبات بشكل خاص كان لهما تأثير أبعد بكثير من اختيار أنواع الأشجار والزهور فى الحديقة الإسلامية؛ حيث يلاحظ أى باحث مدقق فى الفنون الإسلامية أن الحديقة تمثل دائمًا النموذج المفضل للتكوينات المرئية فى الفنون الأخرى كالرسم، والنحت، والخط العربى، وطباعة النسيج، وصناعة السجاد العجمى الشهير، ومن خلال هذا الإطار تتضح أهمية مؤلفات مثل ما كتبه رشيد الدين الصورى وأبو القاسم الوزير لاحتوائها على لوحات تصويرية للأشجار والزهور والمتسلقات النباتية المستعملة فى هذه العصور.

ويتفق مهندسو عمارة البيئة اليوم على أن استعمال النباتات فى أى موقع سواء كان سكنيًّا أم عامًّا يجب أن يشمل أغراضًا انتفاعية، أو معمارية، أو مناخية، أو جمالية، وعلى سبيل المثال فلثمار الفاكهة التى تنتجها البساتين قيمتها الغذائية، والكثير من الأزهار لها خواص طبية وعطرية. أما من جهة الأغراض المناخيه فأشجار الحدائق والبساتين تعد رئة التنفس للمواقع المحيطة بها لقيامها بتحويل ثانى أكسيد الكربون إلى الأوكسجين، وتخفيض تلوث البيئة، وتقليل سرعة الرياح المحملة بالأتربة والرمال، وتوفير أماكن الظل المحمية من حرارة الشمس.

وما تبقى من الحدائق الإسلامية التاريخية يؤكد نجاح الكثير من هذه الأمثلة من ناحية معالجة المناخ المحلى، فقد استعمل مصمم الحدائق «أشجار السرو ـ Cypress tree» حول حدود الحديقة كدرع واقية ضد العواصف الرملية طول العام. ونظرًا لجفاف الهواء المتسرب من خلال هذا الصف الأول من النباتات، أضاف المصمم صفًّا آخر من «أشجار الحور البيض ـ Popler tree» لترطيب الموقع، وبواسطة هذين الصفين المحيطين بالحديقة، اللذين يبلغان حوالى ٣٠ مترًا فى الارتفاع تمتع الموقع فى أغلب ساعات النهار بظل وحماية من أشعة الشمس الحارقة التى تسبب مشاكل جمة للإنسان والنبات على السواء.

ومن المعروف أن المسجد الجامع بمدينة قرطبة بالأندلس قد تمت زراعة الأشجار فى صحنه منذ القرن التاسع. ورغم صعوبة التخمين أهل كان بدافع انتفاعى كالتحكم فى أشعة الشمس وتوفير المناطق الظليلة لجموع المسلمين خاصة أثناء صلاة الجمعة وصلوات الظهر والعصر، أو بدافع روحى كرمز من رموز وعناصر جنات الخلد؟

وعموما فمن الواجب أن نشير إلى أن علماء الشريعة آنذاك اختلفوا فيما إذا كانت زراعة الأشجار فى صحن المسجد شيئًا مستحبًّا أو مكروهًا أو مباحًا حسب الشريعة الإسلامية، وبصرف النظر عن مثل هذا الاختلاف الفقهى فلا شك أن إدخال الخضرة لبيوت الله قد هيج قريحة بعض شعراء القرن العشرين مثل الشاعر الباكستانى محمد إقبال فى قصيدة سماها «مسجد قرطبة» حين قال:

كنخيل الشام وأعمدته ... شمخت فى المسجد أعمدة

تتألق زرقة قبته ... وتقيم الليل وتقعده

وهكذا نجد شاعرنا يحلم بالأشجار والنخيل حتى وهو يسترجع عناصر إنشائية كأعمدة المسجد، فومضات الحديقة الإسلامية مترسبة فى قلوب المؤمنين كنفحات من الجمال الذى يلمس النفوس ويطهر الأرواح ويبعث الأمل فى اليوم الموعود.

ويبرز فى هذا المجال شيوخ وشعراء الصوفية المرموقون مثل محى الدين بن عربى الذى يعتبره كثير من مؤرخى الفلسفة والأدب فريد عصره ووحيد زمانه؛ نظرًا لفكره العميق وخياله المبدع، الذى يظهر ساطعًا ومتوهجًا فى شرحه لقول الله تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

وإذ يفسر ابن عربى هذه الشجرة بأنها الكلمة الطيبة وهى كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، هى شجرة نافعة ومثمرة فى الحياة الدنيا والآخرة مثلها كمثل الشجرة المثمرة الثمار الطيبة. وهى كلمة طيبة كالشجرة الطيبة شجرة النبوة والإيمان والخير. وأما الشجرة الخبيثة، فهى شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان، ومن خلال تأملات ابن عربى نجد أنه أخذ عنصر الشجرة وألقى عليها ظلالًا قرآنية، وفكرته واسعة أدخلتنا جميعًا فى رحاب روحية طليقة من حدود الزمان والمكان.

Plant Name	اسـم النبـات
Myrtle	**الريحان**
Jasmins	الياسمين
Wild Jasmins	**الزيان**
Violet	البنفسج
Red rose	**الورد**
White Lily	السوسن
Almond Blosson	**نوار اللوز**
Pamegrante Blosson	نوار الرمان
Orang Blosson	**الزهر**
Carntion	القرنفل
Mint	**النعناع**
Saffron	الزعفران
Lemon	**الليمون**
Plum	الخوخ
Mulberry	**التوت**
Carob	الخروب
Apricot	**المشمش**
Peach	خوخ الدراق
Palm Tree	**النخيل**
Willow Tree	الصفصاف
Cypress Tree	**السرو**
Poplar Tree	الجوز
Grape Vine	**كرمة عنب**
Grove Hedge	أيكة
Box Hedge	**شجيرة البقس**
Magnolia Tree	المغنولية
Orange Tree	**البرتقال**
Citrus Tree	أشجار الفاكهة الحمضية
Tall Juniper	**متسلق العرعر**
Acacia	السنط
Olive Tree	**الزيتون**
Quercus	البلوط
Populus Poplar	**الصنوبر**
Buxus Boxwood	الشمشار
Papaver Poppy	**الخشخاش**
Iris	الزنبق
Liquidamber (Sweet Gum)	**العنبر السائل**

وأخيرًا، فمن اللازم التنويه بأن الكثير من فصائل النباتات التى استخدمت فى الحدائق الإسلامية التاريخية ما زالت متداولة حتى اليوم وتستعمل فى كثير من المشروعات، وهى مدونة بالجدول السابق باللغة العربية واللغة الإنجليزية حتى يتسنى للقارئ تقدير الإنجازات العلمية للحضارة الإسلامية فى عصور ازدهارها، بعكس ما نعرفه الآن فى القرن الواحد والعشرين من تراجع فى مؤسسات التعليم وإنجازات البحث العلمى فى أغلب البلاد العربية.

٣- الأسوار والجداريات

بالرغم من أن الماء والنبات يعتبران أهم عنصرين فى الحديقة الإسلامية من حيث الجهد المبذول فى تصميم وصيانة مكوناتهما، إلا أن الأسوار والجدران المحيطة هى فى الواقع أكثر المكونات المعمارية تأثيرًا على طبيعة التكوين المرئى للحديقة، وعلى العلاقة بين الداخل والخارج، والتناسب بين المساحات والكتل المعمارية فى الفراغ، وعلى الخواص المناخية للحديقة من حيث مساحة المناطق المظللة وطبيعة الإضاءة، ومدى الحماية من الرياح والضوضاء والتلوث الناجم عن البيئة المحيطة بالحديقة أو البستان، وعمومًا فقد أعطت هذه الأسوار كل مستعمل الخصوصية والحماية من صخب وتلوث البيئة العمرانية المحيطة وضوضاء وأتربة الطرق العامة المحيطة بداره، وبالداخل توصل المسلم من خلال هذه الحديقة إلى متعة حسية بهيجة لمست أرق مشاعره كنتيجة لسيمفونية الألوان والأشكال وعطر الورود والأزهار وروعة الأشجار والمياه التى احتضنتها غرفات وقاعات قصره أو دار عائلته.

ويلاحظ فى أكثر من مثال أنه بالرغم من بساطة بل وخشونة الجدران الخارجية للقصر أو الحصن، فإن السور نفسه أو الجدار كان يعالج معالجة جمالية متميزة من الداخل، بل ويكاد يتحول إلى متحف فنى أو معرض للزخرفة والنحت وشتى أنواع الفنون الإسلامية الأخرى، التى يطلق عليها الآن النقاد والأكاديميون الأرابيسك. ويفسر بعض النقاد هذا التفاوت الملحوظ بين بساطة الجدران الخارجية وزخرفة الجدران الداخلية على أنها رمز لتعاليم الإسلام بالتواضع مع الناس من جانب، وتطهير النفس وإثراء الروح فى داخل كل إنسان.

٤- الزخرفة والأرابيسك والخط العربى

ظهرت فنون الأرابيسك التى تضم الزخرفة الإسلامية، والخزف، وتشكيلات التبليط بالطوب والحجارة، والفسيفساء، وصناعة الأثاث الخشبى والمعدنى، وأوانى الطعام، وكذلك استخدام طلاء الجص لتزيين الجدران والأسقف والقباب من الداخل والخارج منذ صدر الإسلام؛ حيث كان هناك حساسية شديدة وتردد مفرط أمام تزيين المساجد، أو محاولة تصوير البشر أو الانخراط فى فنون النحت وإنتاج التماثيل. وكانت هذه الحساسية شيئًا مفهومًا من مجتمع حارب الوثنية وعانى الكثير حتى تغلب على فساد العقيدة ومحا رموزها من ثقافة قومه. ولكن بمرور الوقت وبعد إرساء القواعد الدينية القوية، أصبح هذا التردد شيئًا من الماضى وهاجسًا لا محل له فى عقول أهل إمبراطورية الإسلام الصاعدة، وكان هذا منعطفًا تاريخيًّا، إذ تفجرت بعده عبقرية الفنانين المسلمين وما لهم من إرث فى علوم الرياضيات سمح لهم بإنتاج طراز مبتكر من الزخرفة الهندسية (الأرابيسك) التى شملت شتى أنواع الفنون الجميلة والتشكيلية، ولعب فيها الخط العربى بالذات دورًا رئيسيًّا.

ويجب هنا الإشارة إلى أن الهدف الرئيسى لمثل هذه التكوينات الفنية المبتكرة ـ أو ما يسمى بالنسيج الهندسى للزخرفة الإسلامية ـ هو تحوير العنصر المادى حتى يفقد تدريجيًّا كثافته وثقله وتفاصيله ويصل إلى فكرة تجريدية يمكن نقشها على الجدران والقباب، كما يسهل رسمها فى تبليطات الأرضيات أو زخرفة الكتب والمخطوطات أو تزيين أثاث القصور.

كما لعب فن الخط العربى دورًا متميزًا فى سيمفونية الحدائق والعمارة الإسلامية، فمثلًا نجد فى مبنى صحن السفراء بالغرفة الوسطى حيث يجلس السلطان لوحة مكتوبًا عليها سورة الملك كاملة (سورة ٦٧) وخلفها بانوراما جبال غرناطة وخط الأفق.

اعتبارًا لقداسة اللغة العربية فى ذهن المسلم، ونظرًا لكونها لغة القرآن الكريم ولسان رسول الله ﷺ ولغة أهل الجنة، أصبح فن الخط العربى جزءًا لا يتجزأ من تصميم الحديقة الإسلامية كما هو الحال فى فن العمارة الإسلامية بشكل عام؛ ولذا فإننا نجد هذا ملحوظًا فى زخرفة الجدران والأسوار والعقود، والبوابات، والأرضيات، والفقيات، والنافورات، والتبليطات، والخيام والمظلات، والتكعيبات والأكشاك. ومن الملحوظ فى حدائق الأندلس وقصر الحمراء بالذات مساهمة الكثير من الشعراء فى ملصقات وجداريات

القصر، وقد كان أهمهم هو ابن الجياب (١٢٧٤ - ١٣٤٨) الذى كتب تسع قصائد إلى جانب ابن الخطيب وتلميذه المشهور بغزارة إنتاجه الأدبى ابن زمرك.

وعمومًا فالحوار بين عناصر المبنى المعمارى والقصائد المنحوتة على جدران القصر تمثل سيمفونية جميلة من التناغم والحوار الحالم بين فن العمارة وفن الشعر.

ورغم ذلك تظل الآية القرآنية الكريمة ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] هى اللازمة المتكررة من جدار إلى جدار، ومن عامود إلى عامود، ومن عقد إلى عقد فى أنحاء غرف وقاعات قصر الحمراء الداخلية وحدائق ورياض الحصن الخارجية لتذكير أهل القصر وزواره بالهدف الأسمى فى حياة المسلم، وهو العمل أن تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض، وهكذا فهى تلعب فنيًّا وفكريًّا دور الجملة اللحنية الأساسية Melody فى المعزوفة الموسيقية الكبرى.

ورغم محدودية الأثاث والمفروشات التى استخدمت داخل الخيام والأكشاك والمقصورات والشرفات التى تطل على الحدائق والبساتين، فإنه من المهم إلقاء نظرة عليها ولو عامة. من الواضح للباحث فى فنون صناعة الأثاث والمفروشات المستعملة فى الحدائق أن الأصول البدوية لكثير من الملوك والأمراء فى صدر الإسلام قد أثرت فى طبيعة ونوعية الأثاث والمصنوعات، وعلى سبيل المثال تفتقر هذه القصور لقطع الأثاث الضخمة، وتتميز فقط بالوسادات والسجاد والأبسطة، ومن المناسب هنا أيضًا أن نلقى الضوء على «صحن الأسود ـ Court of Lions» بقصر الحمراء بمدينة غرناطة إذ إنه من الأمثلة النادرة التى استعملت فيها التماثيل داخل الحديقة الإسلامية، وتعتقد مؤرخة عمارة البيئة «رجلز ـ Ruggles» أن هذه التماثيل لها علاقة رمزية بالنبى سليمان ـ عليه السلام ـ الذى ذكره القرآن بأن الله أعطاه حكمًا وملكًا لم يعطه لأحد من خلقه؛ ولذا فقد حفلت أدبيات هذا العصر من دولة الأندلس بتشبيه الأمير محمد بن الأحمر به؛ حيث كان مشهورًا بعدله وقوته وسيادته على أراضى مملكته فى الأندلس.

ولا شك أن تأثير الجالية اليهودية الكبيرة فى غرناطة قد يكون وراء هذه التماثيل، فالفلكلور اليهودى حافل بالمدح والتمجيد لعصر النبى سليمان ـ عليه السلام ـ على أنه العصر الذهبى لمملكة اليهود عبر العصور.

الفصل الرابع



تأثير العقيدة والبيئة والثقافة على تصميم الحديقة الاسلامية

١- الابعاد الفكرية للحديقة الاسلامية

٢- الوصف القرانى لجنات اليوم الاخر

٣- تأثير السنة النبوية على تصميم الحديقة الاسلامية

٤- الابعاد الحضارية للحديقة الاسلامية

٥- الابعاد البيئية للحديقة الاسلامية

٦- الابعاد الجمالية للحديقة الاسلامية

٧- تساؤلات تاريخية



يلاحظ القارئ المهتم بتاريخ الفنون الإسلامية أن المكتبة الأوروبية والأمريكية مزدحمة بعشرات الكتب التى تتناول موضوع الحديقة الإسلامية، والكثير من هذه المؤلفات يمكن تصنيفه تحت مظلة كتب الرحلات أو كتب التاريخ والجغرافيا الحافلة بالصور والخرائط والوصف التفصيلى للمدن والحدائق والبساتين الإسلامية حول العالم.

وبالرغم من كل هذا، فقلما نجد من بين هؤلاء المؤلفين من يتناول الأبعاد الروحية والثقافية لتصميم هذه الأماكن، وحتى من يتطرق منهم لمثل هذه المؤثرات فقد تميزت معالجته بالسطحية أو الخلط وعدم الدقـة.

والواضح من قراءة هـذه المؤلفات أن اللغة والدين كانا أضخم العوائق أمـام هـؤلاء الباحثين؛ لأن آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ تتطلب تمرسًا باللغة العربية، وهى لغـة ثرية بمصطلحاتها، ومركـبة فى قواعدها، وعميقة فى تراثها، وواسعة فى تعبيراتها الأدبية، ودقيقة فى مفرداتها العلمية.

ومع ذلك، فقد كانت هناك استثناءات قليلة مثل الكتاب الذى نشره فى عام ١٩٥٧ المؤلف الفرنسى «جورج ماريز ـ Georges Maraise» تحت عنوان «Melanges d'Histoire et d'Archeologie de l'Occident musalman» وكذلك الكتاب الذى نشرته جامعة هارفارد الأمريكية عام ١٩٧٦ تحت اسم «الجنة الإسلامية ـ The Islamic Garden» والذى ضم فصلًا كاملًا عن الأبعاد الدينية لحدائق الإسلام التاريخية، وكتب هذا البحث المؤلف البريطانى «جيمس ديكى ـ James Dickie».

١- الأبعاد الفكرية للحديقة الإسلامية

الحديقة الإسلامية ـ مثلها مثل كل حدائق الأمم البشرية الأخرى ـ يرسمها خيال الفنان المبدع، ويحتضنها الإنسان العادى كمأوى وملجأ يعتكف فيها بعيدًا عن هموم الدنيا، ويهرب إليها من ضجيج المدينة وحرارة الصيف وغبار الطريق وزحام الحياة.

وبالرغم من هذا التشابه فى الاستعمال البشرى المعتاد فمن الصعب على غير المسلمين فهم العمق الكامل للإبداع الفكرى أو العمق الكامل للمتعة الروحية والمعنوية للحديقة الإسلامية عند الإنسان المسلم.

وقد توصلت إلى هذا الاقتناع لأنه بدون معرفة العقيدة الأساسية فى القرآن الكريم والسنة النبوية فيما يتعلق بالحساب والعقاب والجنة والنار، يصبح من الصعب على الزائر أن يدرك أو يفهم مثلًا: لماذا انقسمت الحديقة إلى أربعة أقسام؟ أو لماذا حرص المصمم على إدخال وتغليب عنصر المياة؟ أو لماذا خلت هذه الحدائق فى أغلب الأحيان من أى تماثيل لبشر أو كائنات حية أخرى؟ وبدون فهم للرموز والتشبيهات والتوريات فى القرآن والسنة وقصائد الصوفيين عن جنات الفردوس، أو كتابات الغزل عند شعراء العرب وفلاسفة الأندلس وبلاد الفرس عن المدينة الفاضلة، أو عما يتخيله الفنان المسلم ويتوقعه كل مسلم فى رياض الآخرة الموعودة، فقد يكون مستحيلًا فهم وتقدير الإنجازات الفنية الباهرة للحدائق الإسلامية عبر التاريخ.

وتلزم هنا الإشارة إلى أنه بينما تمخضت قريحة شعوب الحضارات القديمة منذ مصر الفرعونية وبابل وآشور عن نموذج جنات الآخرة كامتداد للحياة على الأرض، فقد قدم الفنان المسلم حديقة أخرى متميزة عن كل ما هو معروف أو مشهود أو ملموس؛ اقترابًا من فكرة (**لا عين رأت ولا أذن سمعت**).

ونظرًا لاعتقاد المسلمين المطلق أن آيات القرآن هى حقًّا تنزيل سماوى ووحى مقدس، فقد تشكل الاقتناع الكامل عند الفنان المسلم أنه إلى جانب الجهاد فى هذه الدنيا لنيل ثواب جنات الخلد السماوية، فإن عليه أيضًا أن يحاول محاكاة صورتها ـ كما توحى به آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ـ كجزء لا يتجزأ من مهمته الإنسانية السامية فى عمارة الأرض. وقد أكد البروفيسور «آيان ماكهارج ـ Ian McHarg» فى كتابه المشهور «التصميم مع الطبيعة ـ Design with Nature» على هذه النقطة الخاصة بتأثير تعاليم الدين على اهتمام وعناية الشعوب المسلمة فى الماضى بإنشاء الحدائق والبساتين قائلًا: «وكان تركيز المسلمين على تنسيق وصيانة الحديقة واضحًا أن له جذور فى تعاليم دينهم؛ حيث يعتقدون أن الإنسان هو الخليفة المسؤول عن الحديقة، وأنه قادر على

عمل البساتين من الطبيعة المحيطة، وأن الرجل الحكيم باستطاعته إبداع الجنة فى خياله، وأن مهارة الفنان قادرة على إنجازها فى الأرض».

وصورة جنات الفردوس ورياض الخلد فى خيال الفنان المسلم مليئة بالرموز، وغارقة فى الجمال، ومشعة بالأحلام، وتؤدى إلى باقة من التفسيرات المختلفة وإلى تصورات شتى فى ذهن كل زائر. وتنبثق هذه الباقة من علامات ورموز حدائق الآخرة لمصطلحات قرآنية متوهجة ملهمة ومليئة بالإيحاءات مثل سدرة المنتهى، وجنة المأوى، ونهر الكوثر، وجنات عدن، وجنات وعيون، وحدائق ذات بهجة، وجنات تجرى من تحتها الأنهار، وكثير غيرها من المفردات والعبارات الرصينة.

٢- الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر

ويأتى ذكر الحديقة تحديدًا ومعناها الذى نعرفه فى حياتنا اليوم فى مواضع عدة من القرآن والحديث، ويذكر القرآن الكريم فى أكثر من سورة تصويرات رائعة للحدائق المثالية، فهى من وجهة نظر الإسلام هى العطاء والمأوى ونهاية المطاف للمؤمنين فى الدار الآخرة.

ورغم أن تصويرات القرآن الكريم تعطى فقط لمحات وومضات عن مشاهد هذه الجنة الموعودة، إلا أنها كانت دائمًا مصدرًا أساسيًا للإلهام الفنى لغالبية مصممى الحدائق الإسلامية عبر التاريخ.

فنجد مثلًا فى سورة الإنسان آيات تعطى لمحات عن جنات عدن:

* ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٢].

ونجد فى موضع آخر تصويرًا لخصائص المناخ فى هذه الجنات:

* ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٣]

ويتحدث القرآن فى آية أخرى عن خصائص أشجارها وثمارها:

* ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤]

أما فى الآية الستين من «سورة النمل» فيشير القرآن الكريم إلى التأثير النفسى لهذه الحدائق:

* ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠].

وفى الآية الثانية والثلاثين من سورة النبأ يشير القرآن الكريم إلى الاستعمال الجمالى والانتفاعى لجنة الخلد:

* ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢].

وفى الآيات من السابعة والعشرين إلى الواحدة والثلاثين من سورة عبس يعدد القرآن الكريم أنواع النباتات فى هذه الجنات الموعودة:

* ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس: ٢٧-٣١].

والجنة التى هى مآل المؤمنين فى الدار الآخرة ومستقرهم الأبدى هى الحديقة الكبرى. وقد جاء ذكر لفظ الجنة فى القرآن الكريم مائة وست وأربعين مرة، بما فى ذلك (جنتك، وجنته، وجنتى، وجنتان، وجنتين، وجنات).

ونجد فى سورة الرحمن وصفًا رمزيًّا رائعًا لهذه الجنات الإلهية الأزلية، وتركيزًا على جنات أربعة لفئتين مختلفتين من المؤمنين؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى البداية:

﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

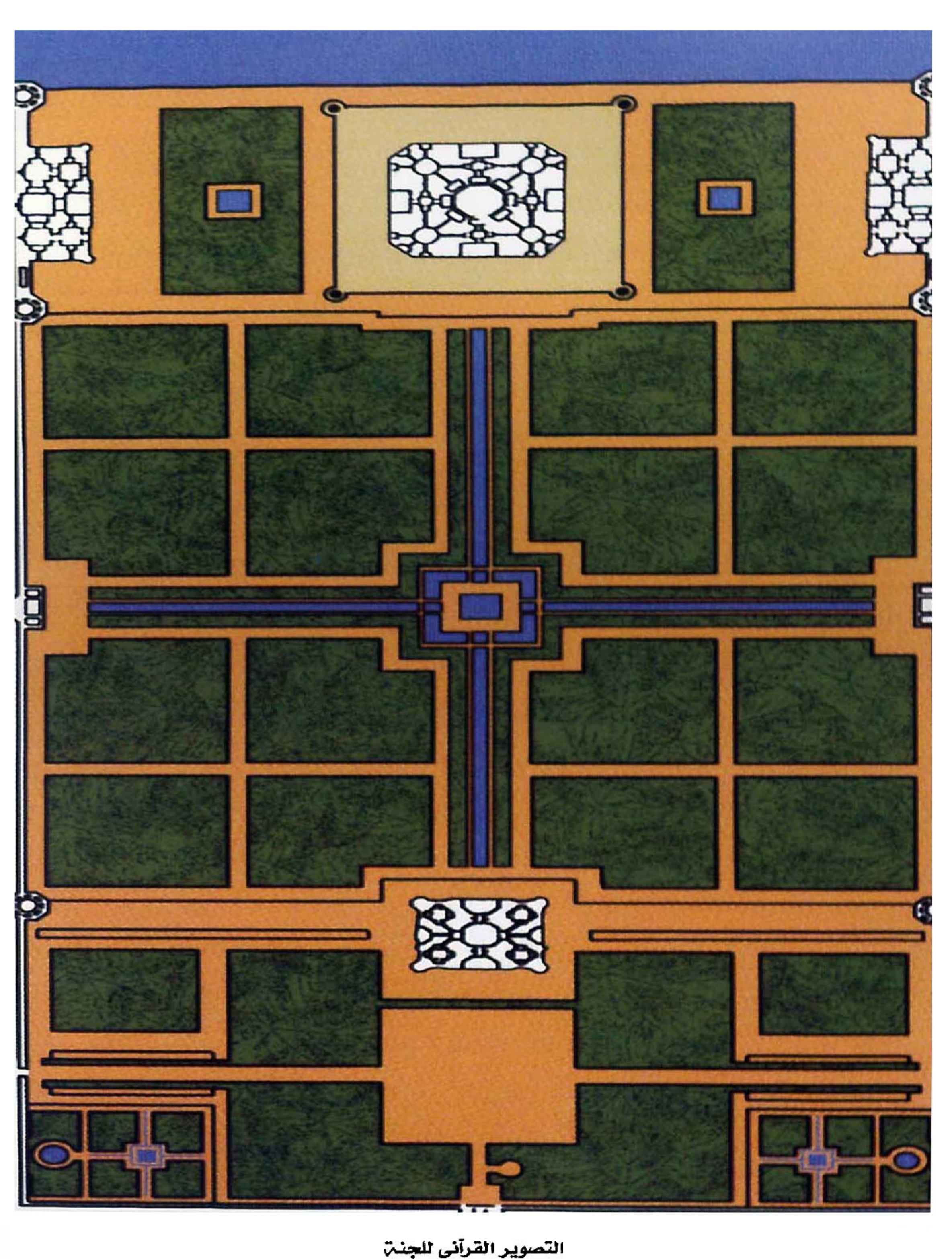
حيث يختص بالذكر أولًا فريقًا ذا مرتبة عالية، أشارت إليهم سورة الواقعة بالمقربين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: ١١ - ١٢]، ويصف القرآن هاتين الجنتين بأنهما يتمتعان بمناخ مريح ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ [الرحمن: ٤٨] أى أغصان وارفة الظلال.

ثم يذكر نوعية العنصر المائى:

﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠]

ويشير إلى تصنيف العنصر النباتى:

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢]



التصوير القرآنى للجنة

كان وصف القرآن الكريم لجنات الآخرة، والإشارة إلى تقسيمها إلى أربع حدائق من العوامل المؤثرة على تخطيط بستان شالامار باغ

ثم يستطرد القرآن الكريم فى السورة نفسها فيذكر جنتين أخريين ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وربما تُخصص لفريق آخر، أشارت لهم سورة الواقعة بأنهم أصحاب اليمين ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠ - ٩١].

ويصف لون الأشجار الغامق من غرازة الرى:

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٤].

ثم يصف أشجارهما:

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨].

أما فى سورة محمد فيصف القرآن الكريم عناصر الجنة وأنهارها وأنواع الشراب المتوفر فيها وما يتميز به من لذة ونقاء وطزاجة وصفاء ومتعة:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [محمد: ١٥].

ويضيف القرآن فى سورة الواقعة لقطات جديدة لجنات الفردوس الخاصة بأصحاب اليمين حيث يقول:

﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٨].

حيث تتحول شجرة النبق المعروفة بأشواكها فى الدنيا إلى شجرة تعطى ثمارها ولكنها منزوعة الشوك.

وفى الآية التالية يضيف القرآن إلى قائمة نباتات جنة الخلد شجر السنط المعروف فى إقليم الحجاز، ولكنها فى الآخرة منضودة ومعدة للتناول بلا كد ولا مشقة التسلق لجمع ثمارها:

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩].

ثم تستطرد السورة نفسها فى وصف مناخ جنات أصحاب النعيم:

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة: ٣١].

ومن المهم أن نتخيل أن من وجهة نظر الإنسان البدوى الذى ترعرع فى جزيرة العرب بصحاريها وقفارها، كيف أثرت هذه الصور المثالية وعملت كالشرارة لخياله وأشواقه، وكمصدر إلهام له فى كل أعماله الفنية مثل القصيدة، والسجادة، والحديقة، وقطعة الأثاث، أو لوحة الخط العربى.

ومن خلال مقارنة هذا الوصف التفصيلى لجنات الفردوس بالكثير من حدائق الإسلام التاريخية يستنتج الباحث سر تكرار تقسيم هذه الحدائق إلى أربعة أجزاء، ويتفهم سبب الإسهاب فى استعمال عنصر الماء من خلال نافورات وأحواض وقنوات، ويدرك لماذا خلت معظم الحدائق الإسلامية من تماثيل للبشر أو لأى مخلوقات حية عمومًا.

ويتضح تأثير كل هذه الآيات القرآنية فى الفنون الأخرى حينما نشاهد بعض الرسومات الفارسية التى صاحبت القصائد الشعرية فى ديوان «خارجو كيرمانى» بالذات، وهو أحد شعراء القرن الرابع عشر. كما نجد أيضًا تأثير وصف القرآن لجنات الخلد واضحًا فى تصميمات السجاد العجمى القديم، وبلا شك فى أمثلة الحدائق الإسلامية الباقية فى بعض الأقاليم الإسلامية التى حافظت على طابع التصميم الأصلى لآثارها.

أما تأثير لغة القرآن الكريم على الأدب والشعر اللذين يتغنيان بالطبيعة والحدائق والبساتين، فقد بلغا ذروة وضوحهما عند شعراء الأندلس فنجد أحدهم مثل ابن زمرك يقول فى قصيدته «هب النسيم»:

هب النسيم على الرياض مع السحر ... فاستيقظت فى الدوح أجفان الزهر

ورمى القضيب دراهمًا من نوره ... فاعتاض من طل الغمام بها درر

نثر الأزاهر بعدما نظم الندى ... يا حسن ما نظم النسيم وما نثر

قم هاتها والجو أزهر باسم ... شمسًا تحل من الزجاجة فى قمر

ثم تتصاعد موجة الاقتباس والاستعمال للمصطلحات القرآنية فى نهاية القصيدة حين يستطرد فى وصف محتويات وعناصر الفردوس فى خياله وأحلامه:

حيث الهديل مع الهدير تناغيا ... فالطير تنشد فى الغصون بلا وتر

والقضب مالت للعناق كأنها ... وفد الأحبة قادمين من السفر

متلاعبات فى الحلى ينوب فى ... وجناتهن الورد حسنًا عن خفر

والنرجس المطلول يرنو نحوها	بلواحظ دمع الندى منها انهمر
والنهر مصقول الحسام متى ترد	درع الغدير مصفقا فيها صدر
يجرى على الحصباء وهى جواهر	متكسرًا من فوقها مهما عثر
هل هذه أم روضة البشرى التى	فيها لأرباب البصائر معتبر

٣- تأثير السنة النبوية على تصميم الحديقة الإسلامية

وبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم نجد أن رسول الله ﷺ قد ذكر فى كثير من أحاديثه الشريفة وصفًا مسهبًا لجنات اليوم الآخر ورياض الصالحين بتضاريسها وطبيعتها وسكانها. وكما هو متوقع أصبحت آيات القرآن وأحاديث الرسول هى المصادر الأساسية لتصور جنات اليوم الآخر، ومن هذا التراث كان النبع الأساسى لأكثر أفكار تصميم الحديقة الإسلامية للحياة الدنيا خلال عصور الازدهار.

ويعتقد بعض المؤرخين أن النافورة أو البئر أو أى عنصر مائى آخر، الذى يتوسط صحن الدار أو البستان المفتوح فى أغلب الأحيان هو تعبير رمزى عن الحوض المذكور فى السنة النبوية كأحد معالم جنات النعيم فى الحياة الآخرة.

ولا شك أن أكثر الأحاديث الشريفة أهمية فى دراستنا هو «**بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة**» حيث يقف الإنسان مرهف الحس والفنان الماهر مبهورًا أمام هذه الكلمات المتدفقة بظلال هادئة حين تتحول الحقيقة والمكان الملموس والمادة الأرضية المحسوسة إلى مفهوم غيبى فى العالم الآخر ونبوءة ساطعة من عالم الواقع. ورغم إدراك مصمم الحديقة الإسلامية أن تلك الروضة التى هى من رياض الجنة بنص الحديث النبوى هى حالة فى قلب وروح المؤمن الذى يزور مسجد الرسول بالمدينة المنورة، لكنها تثير حلمًا فى ذهنه وذهن كل فنان يسعى لعمارة وتحسين الأرض، وتلهمه رؤيته من خلال النموذج الإلهى لرياض الجنة كما تناولته آيات القرآن فى أكثر من موضع كما أوردنا من سور الإنسان، والنمل، والنبأ، وعبس، والرحمن، والواقعة، ومحمد.

ونستدل مما سبق أن ما بهر الباحثين والمؤلفين الغربيين فكتبوا واستفاضوا فى وصفه وتحليله عن الحديقة الإسلامية تحت مظلة الإبداع المعمارى ومهارة التصميم

ودقة الصنعة، شيء منطقى واستنتاج عقلانى ولكنه ناقص ومحدود الرؤية؛ إذ يتجاهل أو يغفل عن فهم تأثير الثقافة المتميزة التى تنفرد بها الأمة الإسلامية والموروث الحضارى التى تحمله.

ولا شك أن عقيدة التوحيد بالذات، وما يترتب عليها من الإيمان ليس فقط بوحدة الخـالق، بل بوحدة الخلق ووحدة الحقيقة، كان لها أبعـاد عميقة فى ذهن الفنان المسلم الذى أدرك بفطرته ودينه وثقافته أن الله هو الخالق الذى أبدع هذا الكون، ووضع له نواميس دقيقة وقوانين ثابتة كى تكتمل المنظومة وتستمر إلى يوم القيامة.

٤- الأبعـاد الحضـاريـة للحـديـقـة الإسلاميـة

كان الشرق دائمًا مهدًا للحضارات الأولى والإمبراطوريات القديمة. وعند ظهور الإسلام وبعد أن دخلت الجيوش الإسلامية شتى بلاد الشرق العربى وفارس وشمال إفريقيا، تأثر الأهالى بطبيعة الدين الإسلامى السمحاء، ودخل الكثيرون من أبنـاء وقـواد هذه البـلاد فى الدين الجديد، واختلط الإنسان العربى بشعوب أخرى فى رحاب الدولة الإسلامية، واحتوت هذه الدولة الجديدة تحت لوائـها كل هذه الحضارات. ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن بعض هذه الأقاليم كان ذا باع فى حقل الحدائق مثل دولة بابل وفارس، أو له علم ودراية بشؤون الرى وزراعة الأرض مثل حضارات مصر والعراق، أو له خبرة طويلة فى تطوير الواحات الخضراء فى قلب البيئة الصحراوية كما هو الحال فى إقليم شمال أفريقيا وحضارة قبائل البربر.

وبمرور الوقت، انصهرت تدريجيًّا كل هذه الخبرات الفنية والهندسية لتقدم للإنسانية جمعاء حضارة متكاملة رفيعة ذات شخصية متميزة قائمة على أصالة تاريخية وفكر عميق ملتزم بروحانيات وأخلاق الإسلام الحنيف، وتهدمت الحدود الإقليمية وتلاشت رويدًا رويدًا بين البلدان الإسلامية، وأصبح الطريق مفتـوحـًا للأفكار والتجارة والأفراد بين حدود الهند والصين فى أقصى الشرق، إلى حدود أسبانيا وجبال فرنسا فى أقصى الغرب.

ومن خلال هذه المنظومة الإنسانية الجامعة ظهر الفن الإسلامى نسيجًا من خيوط متنوعة وخليطًا من مشارب وأصول مختلفة ومزيجًا من أنماط متباينة، وكانت هذه

الشعوب جميعها لهـا عراقة فى الفن وعطاء فى الثقافة وإبداع يشهد بمكانة الفنون والآداب لديها، ومن جانب آخر فتشير الوثائق التاريخية والآثار الباقية أن الفنانين فى عصور ازدهار الدولة الإسلامية قد تمكنوا من الإبداع الفنى من خلال إطـار عقيدتهم السمحاء وبرداء وعبق محلى تناسب خصائص كل إقليم ومزاج كل شعب ويبدو ذلك جليًّا فى تميز الحدائق الإسلامية فى بلاد الأندلس ودولة فارس وشبه القارة الهندية، وكذلك تميز إنتاجها الفنى الآخـر من سجاد وأثاث ومصنوعات فضية ونحاسية وأعمال جص وفسيفساء.

واهتمام الإسلام بالفن ناتج عن اعترافه به كحاجة طبيعية روحية فى الإنسان. ومن المعروف أن كل إنسان فيه قدر من الميول الفنية، وهذه الميول تعبر عن نفسها فى مظاهر مختلفة وإشباعها ضرورى، وإلا شعر الإنسان بالكبت والملل. وقد حث الرسول الكريم ﷺ فى أكثر من موضع على العناية بالقيم الجمالية وتشجيعها فى الحياة اليومية عندما استفسر أحد أصحابه عن رأى الإسلام فى شغف المرء بطيب الملبس والمسكن، فكان رده: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

ولذا يشير الأستاذ محمد قطب فى كتابه «منهج الفن الإسلامى» إلى أن الفن الإسلامى تستحوذ عليه فكرة الجمال التى تتتبعه فى كل شىء وفى كل معنى فى هذا الوجود. والجمال فى الإسلام يقصد به المعنى الواسع الذى لايقف عند حدود الحواس الخمسة، ولا ينحصر فى قالب مادى؛ ولذا يشمل جمال الكون بما فيه من نجوم وشموس وأقمار، وجمال الطبيعة بما تحتويها من جبال وأنهار وبحار وسهول ووديان، وجمال المشاعر وما تجمع من مبادئ الحب والخير والعطاء والإيثار، وجمال القيم وما تحفل به من أفكار وأنظمة ومبادئ عليا، وجمال البساتين وما تجمع من أشجار وثمار وأزهار وطيور وعطور وأضواء وظلال.

ولا شك أن مثلها مثل الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والشعر، فنجاح استعمال الرموز فى تصميم الحديقة الإسلامية يعتمد بصورة أساسيـة على القدرة الفكرية، والإدراك الحسى والتذوق الفنى لزوار ورواد المكان.

وعمومًا فالتذوق الفنى لأى عمل فنى لا يقتصر على دغدغة الحواس، بل يجب أن يمتد ليلمس احتياج النفوس للبعد الجمالى والروحى ثم يعلو ليخاطب عقل وبصيرة الإنسان.



صحن الأسود بقصر الحمراء

يختلف علماء تاريخ الفن فى ظاهرة وضع تماثيل مجسمة. وهى ظاهرة نادرة فى الحدائق الإسلامية، ويعتقد المؤرخون أن هذا من تأثير الجاليات اليهودية بالأندلس.

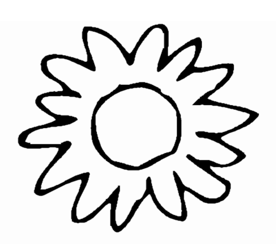
٥- الأبعاد البيئية للحديقة الإسلامية

يشتمل العالم الإسلامى على بلاد يقع معظمها فى بيئة صحراوية أو شبه صحراوية. ويتميز مناخ الصحراء بأكثر من ميزة تؤثر تأثيرًا مباشرًا على تصميم الحدائق خاصة وتخطيط المواقع عامة. فمناخ الصحراء حار جاف، وإشعاع الشمس المباشر كثيف ومتوهج، والسماء صافية وخالية من السحب لأيام طويلة على مدار السنة، ولكن الزوابع الرملية وتجمعات الغبار تحدث بصفة دائمة تقريبًا. أما الرياح فهى ضعيفة فى الصباح وترتفع سرعتها وقت الظهيرة وتصل أقصاها فترة العصر وما بعد العصر. أما تضاريس الأرض فغالبًا مستوية وتربتها السائدة رملية، وقلما نجد تغيرات ملحوظة فى أشكال أسطح الأرض، أو فى أنواع الأشجار وتغيرها الموسمى. وقد كان الرد المنطقى لتهذيب ومعالجة هذه البيئة الرتيبة الخشنة هو محاولة تقليد الفطرة التى أعطت الواحات الخضراء وسط القفار الصحراوية الممتدة. وهكذا بدأ مصمم الحدائق الإسلامية فى إنشاء أمثلة مصغرة لهذه الواحات الخضراء فى شكل حدائق خاصة ملحقة بالبيوت أو رياض ملحقة بالقصور وحدائق عامة تابعة للمساجد والمدارس والمبانى العامة، وميادين ومساحات للأسواق فى القرى والمدن.

ومن المثير لانتباه الكثير من المؤرخين أن نفس البيئة الصحراوية التى أثرت بخشونتها وقسوتها فى الإنسان العربى فبرز فى التاريخ شديدًا ومحاربًا لا يقهر، هى نفسها البيئة التى أثرت برقة أصباحها وروعة أصائلها وسحر لياليها، وتباين خضرة نخيلها مع ذهب الرمال وصفاء المياه فى واحاتها، فأنتجت كل هذه الظواهر الطبيعية من نفس المحارب الشديد البأس شاعرًا وأديبًا وفنانًا مبدعًا لا يحل بأرض إلا عمرها بقصور وحدائق وجعل أهلها عشاقًا للعلم والفن والإبداع والجمال.

٦- الأبعاد الجمالية للحديقة الإسلامية

كانت زيارة الحدائق والبساتين خاصة عاملًا مؤثرًا يلهب أحاسيس الأدباء لكتابة الشعر، وكان افتتاح حديقة جديدة عبر تاريخ الدولة الإسلامية مناسبة متميزة للتغزل فى الحديقة وصاحبها ومن قام بتصميمها، ما بين فنان وبستانى وعالم نبات وعامل زراعة.



حديقة الصحن ومناخ الصحراء

يعتبر هذا النوع ردًا منطقيًا لخشونة مناخ الصحراء إذ تستغل أجنحة المبنى لحماية الفناء من الزوابع الرملية، إلى جانب توفير مناطق ظليلة من أشعة الشمس المتوهجة فى أنحاء الصحن.

وقد ازدحمت أدبيات المسلمين من شعر إلى نثر بكتابات عن الحديقة ومميزاتها، بل واستخدم الكثير من الأدباء أوصافها فى التغزل فى جمال الحبيب.

وتحولت حديقة صحن الدار بالذات إلى المكان الأمثل للمحب الولهان فى لحظات عشقه، وإلى المآوى المفضل للمحب الخائب فى لحظات هربه وأسفه.

ونظرًا لتميز الممالك الإسلامية فى الأندلس بوجود طبقات مثقفة واسعة وأعداد كبيرة من الفئات المتعلمة، فقد ارتفع فن تصميم الحدائق الإسلامية إلى آفاق راقية ومتقدمة للخطاب الجمالى من حيث المضمون والقوالب الفنية، فعلى سبيل المثال نجد فى صحن الأسود الشهير بقصر الحمراء بغرناطة أبياتا من قصيدة مشهورة للشاعر ابن زمرك، والأمر الملحوظ أن هذه الابيات المختارة بما فيها من تشبيه وتورية ومضمون عام تتناسب مع التشكيل الفنى للصحن وتتكامل معه كجزء لا يتجزأ من الإحساس العام الذى يشع من هذا المكان بشخصيته الفريدة. ولا شك أن هذا التكامل بين الشعر وتصميم الفراغ المفتوح هو ما دعا الباحثين إلى استنتاج أن أهل القصر وزواره كانوا على دراية واسعة بالفنون والآداب، ولهم قدرة على تذوق القصائد الشعرية بصفة خاصة.

أما فى شبه القارة الهندية، فنجد على أحد جدران حدائق «شالامار» بيت شعر فارسى مشهور يقول:

إذا كان هناك فردوس على الأرض　　　فإنه موجود هنا إنه موجود هنا

وقد استفاض المستشرقون البريطانيون فى وصف وشرح هذه الحدائق بالذات، فقد أشار «بروكس ـ Brookes» على سبيل المثال ـ فى تحليله الدقيق لها إلى أنها من أحسن الأمثلة للحديقة التى ترجمت بنجاح بعض الأفكار الجمالية والمعمارية مثل فكرة «القصر بدون سقف» أو فكرة «جنة الله فى الأرض».

وكما ذكرنا فى الفصل الأول فقد كان لشيوخ وأقطاب الصوفية صولات وجولات فى قرض قصائد الشعر المتغنية بجنات يوم القيامة وروائع الفردوس المنشود، أو كتابات نثرية تتأمل عناصر الطبيعة، فمثلًا نجد فى الكتاب الرابع من مثنوى مولانا جلال الدين الرومى تحت عنوان «قصة الصوفى الذى جلس فى الروضة ورأسه على ركبتيه فى حال

المراقبة فقال له رفاقه: ارفع رأسك وشاهد الحديقة والرياض والطيور وآثار رحمة الله تعالى» عبارات متوهجة بعشق الطبيعة ومحاولة فهم أسرارها وكشف أغوارها مثل:

ـ البساتين والخضرة فى الروح، وما هو خارج الروح صورتها كما تكون فى الماء الجارى.

ـ إنه خيال البستان فى الماء الذى يصيب بالاضطراب هكذا من لطف الماء.

وكما هو معروف تاريخيًا، فقد ولد الرومى عام ١٢٠٧م فى بلدة بلخ بأفغانستان التى كانت ولاية تابعة للإمبراطورية الفارسية، وقد هاجرت عائلته إلى تركيا عند هجوم جحافل التتار على أفغانستان، ولمع اسمه عندما ألف كتابه المشهور وباكورة إنتاجه والمسمى «أعمال عن شمس التبريزى»، وفى شطحة متوهجة من شطحاته، يتغنى الرومى برموز الجمال كما يراها من خلال البيئة الطبيعية قائلًا:

أنت الماء، ونحن النبات

أنت الامتلاء، ونحن الخواء

أنت المتكلم، ونحن أصداء أصواتك المختلفة

أنت البحث، لماذا لم يعثر علينا بعد؟

وظلت الحديقة مصدر إلهام للشعراء إلى يومنا هذا؛ حيث نجد الشاعر الباكستانى الشهير محمد إقبال فى ديوانه «جناح جبريل» ينشد للزهور والبساتين والشمس والندى قائلًا:

يسوق للزهر أنسامًا تُهيّجها   فيطلق الزهر أنغام البساتين

للشمس من نوره طوق يزينها   وللندى نسب من حوره العين

وفى قصيدة أخرى من الديوان نفسه يحاول تعريف ماهية الفردوس المنشود فيقول:

ليس فى الفردوس ذكر   لكهوف وصوامع

إنما الفردوس فيض الحب   من صدر الجوامع

٧- تساؤلات تاريخية

ما زال باحثو علم تاريخ الفنون الإسلامية حائرين أمام إمكانية الجزم بميعاد ومكان تأثير فكرة جنات الخلد، وكمثال يحتذى به فى تصميم الحدائق والبساتين الإسلامية، ومع هذا فمن الممكن القول إن بداية الاهتمام بإنشاء حدائق حول مقابر أمراء وملوك دولة الإسلام فى الأندلس كان أحد العوامل التى أضافت الأبعاد الدينية والروحية على ساحة الفكر وأمام الفنان المسلم عند تصميمه لهذه الحدائق.

ولذا يميل بعض المؤرخين للاعتقاد بأن بداية التأثير الروحى الواضح للقرآن والسنة على تصميم الحدائق بدأ فى أسبانيا، وبالذات بعد سقوط مدينة قرطبة فى أيدى الفرنج وانقسام الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى دويلات صغيرة فى المدن الكبرى المعروفة، مثل غرناطة وطليطلة وأشبيلية.

وقد اعتاد الأمراء الأمويون أن يوصوا بدفن جثمانهم فى مقبرة داخل قصر الإمارة فى حديقة كانت تسمى تقليديًّا بالروضة، ومن الملحوظ أن شعوب دول شمال أفريقيا ما زالوا حتى يومنا هذا يسمون المقبرة «الروضة»، ويعتقد الكثيرون أن عادة دفن الأمراء داخل قصورهم ساد ت فى ذلك العصر تيمنًا واقتداءً بدفن الرسول ﷺ فى صحن داره بالمدينة المنورة، والتى يطلق عليها عامة المسلمين «الروضة الشريفة» إلى الآن.

ومن الأمثلة المعروفة بالأندلس هى روضة قبر الوزير أبى مروان الزحالى الذى أمر فى وصيته بوقف حديقته كجزء من الأوقاف الإسلامية بعد دفنه بها وإقامة ضريح له فيها، كما أوصى بدفن صديقه الشاعر ابن شهيد تعبيرًا عن صحبتهما فى الحياة والممات.

وقد كتب ابن شهيد وصفًا دقيقًا وشاعريًّا عن هذه الحديقة وما تحمله من رموز ومعانٍ له ولصديق عمره أبى مروان الزحالى.

ويجب الإشارة إلى أن بعض علماء تاريخ الفنون من أمثال «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D.Fairchild Ruggles» يعتقد أن فكرة استيحاء الفردوس المنشود من خلال التصوير القرآنى فى تصميم حدائق الأندلس لم يتم تطبيقها حتى القرن العاشر، وفى رأيها أن الحدائق فى القرن الثامن والتاسع كانت حدائق دنيوية للترويح والمتعة فى الاحتفالات العامة، وليس للتأمل والتفكر فى اليوم الآخر وجنات الميعاد التى أعدت للمتقين، كما تعتقد أيضًا أن

سابقة ضم المدافن والأضرحة هى التى جلبت البعد الروحى والدينى إلى حدائق المسلمين فى الأندلس بعد أن كانت حدائق قصور للمتعة الدنيوية للملوك والأمراء.

وعمومًا فسيظل الجدل دائرًا بين الباحثين فى حقل الحديقة الإسلامية وتاريخ تطورها، خاصة فيما إذا ارتبطت الاستعارة الفنية والإبداع الرمزى لحدائق المسلمين فى الأندلس وما تذخر به آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ من تصوير لجنات الخلد فى الدار الآخرة أم أن هذا التأثير قد ظهر بعد حقبة معينة من الزمن وبالتحديد مع بداية القرن العاشر. ولا شك أنه من الصعب أن نجزم برأى محدد أو قول فاصل فى هذه المسألة خاصة وأن اللفظ المستعمل فى كثير من أدبيات اللغة العربية وهو «جنة» ومن الصحيح استعماله لفردوس الآخرة أو حدائق الأرض.

وعمومًا فإنه من النادر فى الأزمنة السابقة أو حتى فى عصرنا هذا أن يدون المصمم أو الفنان خطوات صنع القرار أو المؤثرات التى دعته للإقدام على تشكيل فنى بصورة أو بأخرى.

وسواء فهمنا دوافع الفنان والمصمم فى يوم من الأيام أم لم نفهم فستظل ذكريات الحديقة الإسلامية فى القلوب والأرواح كومضات من الجمال الشاعرى وكمكان للاستجمام الهادئ والتأمل المستغرق، حيث يستمتع المرء فيه بنسمات الأمسيات العطرة وخرير المياة الناعمة وتغريد الطيور المحلقة ومشاهد الأشجار وألوان الزهور، ولكن أولًا وأخيرًا فستبقى الحديقة الإسلامية مصدرًا لتأملات العابد فى إبداعات الخالق، ومنبعًا لإلهام الفنان، وواحة لسكينة الإنسان على مر العصور وفى شتى أقاليم المعمورة.



الفصل الخامس



الحدائق الاسلامية التاريخية

١- مقدمة

٢- حدائق العالم العربى المفقودة

٣- حدائق قلعة الحمراء (اسبانيا)

٤- بستان شالامار باغ (باكستان)

٥- حدائق بلاد فارس (ايران)



١- مقدمة

يطرح الباحثون والمهتمون بموضوع الحديقة الإسلامية دائمًا عدة أسئلة أساسية أولها:

* أين توجد أهم الأمثلة وأروع النماذج للحدائق الإسلامية عبر التاريخ؟
* وماذا نعرف عمَّن قام بالتصميم الهندسى والإبداع الفنى والعمارة البيئية ثم الصيانة العلمية لمثل هذه الحدائق؟
* ومن هم الرواد الأوائل لفن تصميم الحدائق الإسلامية، وأين عاشوا، وما هى الفئات التى استعملت وزارت هذه الحدائق؟

ويلاحظ أن هناك تركيزًا كبيرًا بين المؤرخين وعلماء الفن وعمارة البيئة على الاهتمام بالحدائق الإسلامية فى بلاد الأندلس وكشمير وإيران فقط، واعتبارها الأهم للدارسين والباحثين والسياح. ويعتقد المؤلف أن هذه الأمثلة هى الأكثر شهرة بلا شك، ولكن ليست بالضرورة الأهم أو الوحيدة عبر تاريخ الأمة الإسلامية. وفى اعتقادى أن هذا الاهتمام الخاص يرجع لتواجد وبقاء هذه الحدائق إلى يومنا هذا؛ نظرًا لنجاح برامج الصيانة والإصلاح والترميم التى قامت بها الهيئات الحكومية فى هذه البلاد خلال العقود الماضية.

وبالرغم من تلاشى واندثار حدائق إسلامية أخرى فيجب ألا نغفل أن ما كتبه المؤرخون والرحالة عن حدائق تاريخية مختلفة يستدعى منا الاهتمام بأماكن وأقاليم أخرى، يبدو لنا أن أهميتها التاريخية قد لا تقل عما بقى لنا حاليًا عبر العصور، وقد تمت الإشارة لها فى هذا الكتاب فى مواضع مختلفة. وعلى سبيل المثال فيجدر الإشارة إلى الوثائق التى كتبها سفراء الدولة البيزنطية فى عام ٩١٧، بعد زيارتهم لقصر الخليفة

العباسى ببغداد التى تؤكد أن فن تصميم الحدائق قد وصل إلى درجة عالية من الإبداع والرقى فى عاصمة الرشيد.

ولا شك أن هناك الكثير من الدلائل والمخطوطات التى تدعونا للاعتقاد أن العواصم والمدن الإسلامية المهمة، مثل دمشق والقاهرة وحلب وسامراء والقيروان وفاس ولاهور ومشهد وحيرات وشيراز وإسطنبول وسمرقند وبخارى لم يتم دراستها بدرجة كافية، ولم يتم بحث تاريخ المخطط العمرانى لها عبر القرون، وتدوين أماكن وأنواع الحدائق الخاصة والبساتين والساحات العامة التى شيدت بها فى عصور النمو والازدهار لكل مدينة، وسيستدعى هذا فى المستقبل تكاتف بين علماء التاريخ والآثار وأساتذة تاريخ الفنون وعمارة البيئة وتخطيط المدن وإخصائى العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ولعله من المهم أن نقتنع الآن أنه من الحكمة بل ومن الضرورى أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية على مستوى شمولى للعالم الإسلامى كله، وليس على نطاق ضيق لمنطقة جغرافية محدودة أو حضارة أو قومية بذاتها. وإذا اتبعنا هذا القول سنجد أن مهمتنا فى دراسة الحديقة الإسلامية أصبحت مهمة ضخمة فى حجمها لنا ستمتد لتشمل ثلاث قارات، هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإذا نحن ألقينا النظر على الأمثلة الباقية حتى يومنا هذا من الحدائق الإسلامية التاريخية، فسنجد أنها تشمل حقبة زمنية تقرب من السبعة قرون (فى رأى غالبية علماء التاريخ). ولكن إذا تعمقنا بعين البحث فى مصادر أخرى كالمخطوطات الأثرية والمؤلفات الأدبية والحفريات، فسنجد أن تاريخ الحديقة الإسلامية قد غطى ما يزيد عن ذلك بكثير.

وقد ساد الاعتقاد فى الأوساط العلمية دائمًا أن الحديقة الإسلامية التقليدية تشمل فقط حدائق الدولة الأموية فى الأندلس والمسماة فى الغرب «إمبراطورية المسلمين المغاربة ـ Moorish Empire»، وحدائق مدن فارس مثل أصفهان وشيراز وأشرف، وحدائق «إمبراطورية المغول ـ Mughul Empire» الإسلامية فى القارة الهندية. وقد حان الوقت لتصحيح هذا الاعتقاد الخاطئ عن طريق القيام بدراسات متكاملة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لبيان الأمثلة الأخرى خاصة فى الجزائر، والمغرب، وتونس، ومصر، وتركيا، وصقلية، والعراق، والجزيرة العربية، وأفغانستان، والقارة الهندية، وبلاد الصين، وأوزبكستان.

ومن المؤسف حقًا أنه بالرغم من أن منطقة البلاد العربية كانت دائمًا هى قلب العالم الإسلامى، إلا أننا نجد أن الحدائق الإسلامية التاريخية التى تم الحفاظ عليها إلى اليوم تقع فى أطراف هذا القلب كما هو الحال بالنسبة لحدائق أصفهان بإيران، وحدائق كشمير بالهند، وحدائق قصر الحمراء بأسبانيا، كذلك يبدو أن حدائق الصحن المحوطة بالمبانى كان الحفاظ عليها أو صيانتها أسهل عبر العصور. أما البساتين المفتوحة فقد اختفى أغلبها بمرور الزمن، أو تغير نوع استعمالها أو تم تدميرها لدوافع شتى اقتصادية أو اجتماعية.

ومن الأمثلة المعروفة عن الحدائق والبساتين التى تلاشت عبر الزمن حدائق مدينة الزهراء، وهى من أهم المعالم التى تعبر عن إنجازات حقلى عمارة البيئة وتخطيط المواقع فى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس كافة. ونظرًا لأن الحفريات والأبحاث التاريخية لهذا الموقع التاريخى تأخرت حتى نهاية القرن العشرين، فإن القليل من الكتب قد تناولتها بطريقة متكاملة، ومن المؤسف أن التنقيب عن مدينة الزهراء اقتصر على جزء صغير جدًا ولم يشمل المساحة الكافية. ولذا فإن المعلومات المتوفرة والأبحاث المنشورة لا زالت قاصرة وغير قادرة على الإفصاح عن تاريخ مدينة الزهراء وحدائقها وتفاصيل تخطيط المواقع التى تشملها. وبعد مرور ما يزيد عن خمسة قرون وهذه المدينة الساحرة مدفونة تحت طبقات النباتات وأكوام الردم المهملة؛ ولذا فقد اضطر الباحثون إلى الاعتماد أساسًا على مدونات الرحالة ومؤرخى هذا العصر وشعرائه.

٢- حدائق العالم العربى المفقودة

قد يصاب القارئ العربى بالإحباط أو قد يندهش عندما يجد فى هذا الفصل من الكتاب استعراضًا للحدائق الإسلامية من الهند وباكستان وإيران وأسبانيا فقط، بينما يخلو من أى أمثلة تصف وتشرح أى نماذج من العالم العربي. وقد واجهت المؤلف نفس الحيرة بل والانزعاج ودام تساؤله سنوات طويلة وترددت علامات الاستفهام فى ذهنه عن تعليل ذلك وتفسير أسبابه، هل من المعقول أن دمشق الفيحاء وحلب الشهباء وبغداد عاصمة الرشيد وحاضرة العصر العباسى الذهبى كانت بدون رياض أو بساتين ذات أهمية تاريخية؟ أم هل اندثرت معالم هذه الحدائق إلى الأبد؟ وهل أخفق كل الرحالة

والزوار والمؤرخين فى هذه العصور عن وصف أو تدوين ما رأوه أو سمعوا عنه؟ وما بال الشعراء والأدباء العرب فى خلال هذه القرون الطويلة؟ هل نظموا القصائد وتباروا فى وصف هذه الحدائق الإسلامية وخاصة ما شيده ورعاه خلفاء المسلمين وأمراء الدولة والوزراء والولاة على أقاليم وأمصار الإمبراطورية التى امتدت من الخليج العربى إلى المحيط الأطلنطى؟ والرد على كثير من هذه التساؤلات يعود بنا إلى ما ذكرناه فى مقدمة هذا الكتاب. نعم، احتلت الحدائق والبساتين مكان الصدارة فى تخطيط وتصميم المدن الإسلامية العربية منذ القرن السابع الميلادى وحتى انهيار الدولة العثمانية فى مطلع القرن العشرين، ولكن نظرًا لما عانت منه الأقطار العربية جميعًا من عصور تقهقر وانحطاط فى العقود اللاحقة تحت وطأة الاحتلال والتهميش ثم التغريب، فقد فقدت الكثير من المدن العربية الكثير من عناصر نجاحها ومعالم جمالها، وبمرور الوقت أصبحت العشوائية والتلوث والضوضاء والتفكك هو الطابع الغالب على هذه المدن. وهذا الكتاب هو نداء لكل مواطن عربى للتذكير أن الوقت قد حان لاستعادة الطابع الإنسانى لكل مدينة، ولتوفير المناطق الخضراء كجزء لا يتجزأ من النسيج العمرانى، ولتجسيد اتصال الإنسان بالطبيعة كمصدر للحياة حيثما يعيش، ولصيانة المثاليات الأخلاقية والجمالية والروحية من خلال صيانة الأرض والماء والهواء والزروع والزهور إلى جانب المساكن والعقارات والأسواق والطرق والمصانع، ولعله من الواجب أن تتكاتف الجهود كى نبدأ مسيرة بحث وتوثيق وترميم وصيانة كل المواقع الأثرية المهمة فى مدن وعواصم البلاد العربية كافة والنظر فى إعادة المدائن التاريخية وترميمها بدلًا من تدميرها، كما حدث فى الكثير من الحدائق التى تم إنشاؤها فى مصر فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى حكم أسرة محمد على.

ولعلنا نحتذى فى ذلك بالإنجازات الباهرة التى حققتها بلاد أخرى مثل الهند وباكستان وإيران وأسبانيا كما سيرد ذكره فى الجزء التالى من هذا الفصل. ويعتقد المؤلف أن الحاجة أكثر من ملحة فى حالة مدينة القاهرة، وهى أكبر مدن العالم العربى وأفريقيا، التى يسكنها ما يقرب من ربع سكان مصر والتى أشار بعض خبراء عمارة البيئة ونشر فى جريدة الأهرام المصرية أن نصيب كل ساكن من المناطق الخضراء لا يزيد عن ٤٠٠ سنتيمتر مربع، وأن معدلات تلوث الهواء فى بعض ضواحيها مثل حلوان والتبين ينتج

عنها ١٥٠ حالة إصابة صدر يوميًّا تستقبلها المستشفيات هناك، وأن معدلات الضوضاء بمناطق مثل الدقى والعتبة والهرم قد وصلت إلى أرقام خطيرة تهدد الصحة العامة، وأن التحجر الرئوى يصيب ٢٨ ٪ من التلاميذ فى المدن الصناعية مثل حلوان والسويس، وأن التهاب الجيوب الأنفية الناتج عن تلوث الهواء يصيب ٢٠ ٪ من المصريين، وأن تلوث المياة قد أدى إلى إصابة خمسة ملايين مصرى بأمراض الغدة الدرقية والانتشار الكبير فى أمراض الفشل الكلوى. وفى دراسة تم نشرها فى عام ١٩٩٧، ثبت أن نسبة كبيرة من أطفال مصر يعانون من قصر القامة أو نقص الوزن أو الأنيميا من جراء تلوث الماء والهواء والأطعمة ونقص الغذاء الصحى.

ولا شك أن الباحث المدقق سيندهش إذا ما قارن القاهرة فى القرن الواحد والعشرين والتى تعانى من هذا الخضم الهائل من مشاكل البيئة، مع ما ذكره المؤرخون والرحالة عن بساتين القاهرة وحدائقها وجمالها فى الماضى، وما تحويه من أجود أنواع الثمار والأشجار وشتى الأغراس. فنجد على سبيل المثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر فى الفترة ما بين ١٠٤٧ - ١٠٥٠م يستطرد فى مديح بساتين القاهرة بقوله:

«وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وبها بساتين لا نظير لها»

وينشد إبراهيم بن القاسم متشوقًا إلى القاهرة بعد خروجه منها عام ٩٩٦م فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ومتغزلًا فى اتساعها وجمال ما تحويه من بساتين.

وبالمقس والبستان للعين منظر ... أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر
فكم بين بستان الأمير وقصره ... إلى البركة النضراء من زهر نضر

والقاهرة الكبرى التى نعرفها اليوم هى مدينة يزيد عمرها عن الألف عام؛ حيث بدأت أصلًا بمدينة صغيرة أنشأها عمرو بن العاص كعاصمة له بعد أن فتح المسلمون مصر، وقد أطلق على مدينته الجديدة اسم «الفسطاط»، وكان من أهم معالمها جامع عمرو بن العاص وكذلك المنطقة المسماة «بركة الحبش». وبعد قيام الدولة الطولونية تحت قيادة أحمد بن طولون، نقل عاصمة الدولة إلى موقع قريب؛ حيث أنشأ مدينة العسكر وفى وسطها المسجد المشهور بجامع أحمد بن طولون، ولا شك أن أكثر الحدائق شهرة فى هذا العصر هو بستان خمارويه نجل أحمد بن طولون، والذى استطرد فى وصفه المؤرخ

المصرى تقى الدين المقريزى وأشار إلى ما احتواه من أنواع الشجر والرياحين؛ حيث جلب له نباتات كثيرة من خراسان مسقط رأس ابن طولون، وزرع فيه الزعفران واستخدم عنصر الماء فى فساقى يتصل بها مجارٍ مائية معدة لسقى البستان، وغرسه بكافة أنواع الأشجار المحلية والمستوردة. ويتفق المؤرخون أن موقع البستان هو المنطقة بين جامع أحمد بن طولون وميدان صلاح الدين بالقلعة. ومن المعروف فى تاريخ علم النبات أن العرب المسلمين هم أول من أدخلوا نباتات الأشجار والفاكهة الآسيوية إلى مصر ثم أفريقيا، وأن لهم السبق فى نشر زراعة الفواكه الحمضية فى شمال أفريقيا وجنوب أسبانيا.

وبعد انتقال الحكم إلى الدولة الأخشيدية، انتقلت عاصمة الدولة إلى موقع آخر قريب، حيث أنشئت مدينة القطائع، وسار الإخشيديون على نهج الطولونيين فى الاهتمام بإنشاء الحدائق والبساتين الفاخرة. ويعتبر بستان الأمير كافور الأخشيدى من أهمها، وقد ذكرت بعض المراجع أنه أنفق فى تشييده أموالًا طائلة واستخدم الكثير من أساليب الفلاحة المستحدثة فى ذلك الوقت، مثل التطعيم والتقليم. ومع تأسيس الفاطميين لدولتهم فى مصر وإنشاء مدينة القاهرة، شهد فن تصميم الحدائق والبساتين وحقل الفلاحة تطورًا كبيرًا وانتشارًا غير مسبوق. فقد أنشأ الأمراء الفاطميون البساتين البديعة التنسيق ذات الأشجار الباسقة وتفننوا فى خلط عنصر المياه مع الأشجار فى سيمفونية عجيبة الصنع، وقد زاد من إبداع هذه المناطق الخضراء وجودها على مواقع تحتضن شاطئ النيل والخلجان المتفرعة منه.

وتعود المناطق المعروفة الآن بفم الخليج ومنيل الروضة وبركة الفيل والأزبكية وعين شمس والمطرية إلى جذور فى العصر الفاطمى وبساتينه، وقد تحولت الآن إلى كتلة عمرانية ضخمة تضج بالحركة وبآلاف المساكن الخرسانية والأسواق والشوارع الأسفلتية التى تعج بملايين السكان الذين يفتقدون مُتنفسًا للترويح أو فرصة للاستمتاع بالطبيعة.

ويجدر القول أن الاهتمام بالحدائق والبساتين استمر بعد سقوط الدولة الفاطمية وتأسيس الدولة الأيوبية التى يرجع لها الفضل فى إدخال زراعة البرتقال والنارنج إلى مصر، وقد جلب الملك الكامل عالم النبات الأندلسى الشهير ابن البيطار لخدمته فى مصر لعدة سنوات.

أما أمراء الدولة المملوكية، فقد تباروا فى زراعة الحدائق داخل قصورهم وحولها، وامتلكوا بساتين عامة كبيرة المساحة.

وعمومًا تؤكد الوثائق التاريخية أن بساتين القاهرة وحدائقها لفتت أنظار المؤرخين والرحالة باتساعها وجمالها وغزارة وتنوع مزروعاتها، إلى جانب براعة وسحر المواقع المقامة عليها.

ومن أهم من كتب عن القاهرة أو قام بإنشاء أشعار عن حدائقها وبساتينها هو إبراهيم بن القاسم (الشاعر الملقب بالرشيق)، وعالم النبات الرحالة عبد اللطيف البغدادى والرحالة الفارسى ناصر خسرو، وعالم النبات ابن مماتى المتوفى عام ١٢٠٩ ومؤلف كتاب «قوانين الدواوين»، والرحالة الأندلسى ابن سعيد المغربى المتوفى عام ١٢٨٦، والعلامة الإسلامى جلال الدين الشيرازى الذى تغزل فى حدائق وبساتين القاهرة قائلًا:

حـى ربـا مـصر وجـنـاتـهـا	وحورهـا العين وولدانها
ودورهـا الـزهـر وساحاتها	وبـين قـصريهـا ومـيـدانهـا
وأرضـها المخصب أرجاؤها	ونيلها الزاهى وخلجانها
ومنية السيرج لا تنْسلها	وقرطها الأحرى وكتانها

وينضم لهذه الكوكبة ابن فضل الله العمرى المتوفى عام ١٣٤٩ الذى يستطرد فى مدح ربيع القاهرة وزهورها وثمارها وخلجانها ومتنزهاتها، ويجىء بعده فى القرن الخامس عشر العلامة القلقشندى المتوفى عام ١٤١٨ ليكتب قائمة نباتات وزهور وفواكه رآها فى زيارته للقاهرة. ومع ذلك، فسيظل أكثر المؤرخين شهرة ممن تحدثوا عن بساتين القاهرة هو العلامة تقى الدين المقريزى والمتوفى عام ١٤٤٠، وبعده ابن ظهيرة المتوفى عام ١٤٨٦ الذى أشار إلى تمييز القاهرة بالمآذن العالية والأشجار الناضرة والمياة الجارية والأزهار العطرة.

أما رحالة وعلماء القرن الخامس عشر مثل السيوطى المتوفى عام ١٥٠٥ وابن إياس المتوفى عام ١٥٢٤، فقد اهتموا بكثرة أنواع أشجار الفاكهة المزروعة بحدائق القاهرة،

وسماها أحدهم «مدينة الزهور السبعة» إشارة إلى خاصية متميزه لهذه المدينة فى ذلك الوقت ألا وهى وجود الزهور السبعة التى تجتمع فى وقت واحد، وهى: النرجس، والبنفسج، والبان، والورد، والنارنج، والريحان، والياسمين.

ولعل تشييد حديقة الأزهر الجديدة على الطراز الإسلامى فى منطقة القاهرة الفاطمية وافتتاحها عام ٢٠٠٥ يكون بداية صحوة جديدة لإنشاء سلسلة من المناطق الخضراء، لتكون رئه التنفس لهذه المدينة العملاقة، ومصدر صحة وجمال وحكمة لسكانها. ومن المعروف أن هذه الحديقة كانت هدية من الأغا خان، وقد بلغت تكلفتها ما يزيد عن ٣٠ مليون دولار، وقد بنيت على مساحة ٧٥ فدانًا فى موقع ملاصق للقاهرة الفاطمية وقلعة صلاح الدين الأيوبى.

وتجدر الإشارة إلى إضافة جديدة مفيدة لحقل تاريخ الحديقة الإسلامية، وهو الفهرس الذى أضافته الدكتورة «دى. فيرتشيلد رجلز ـ D. Fairchild Ruggles» فى كتابها المنشور عام ٢٠٠٨، تحت اسم «المناظر الطبيعية والجنات الإسلامية ـ Islamic Gardens and Landseapes»، ويضم هذا الفهرس نبذه قصيرة عن موقع وتاريخ ووصف مختصر لحدائق إسلامية تاريخية فى أكثر من خمسة عشر بلدًا، مثل أسبانيا وصقلية والمغرب والجزائر وتونس ومصر وتركيا وبلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان وباكتسان والهند وكشمير. ومن الملحوظ أن المؤلفة أضافت خرائط ومساقط أفقية دقيقة لكثير من هذه المواقع، إلى جانب المراجع العلمية التى اعتمدت عليها ومعظمها باللغة الإنجليزية والفرنسية والأسبانية. ومن الجدير بالذكر أن هذا الفهرس يضم الحدائق الموجودة فيما يزيد عن ٤٠ مدينة فى العالم بما فيها قرطبة وغرناطة وأشبيلية، وباليرمو، وفاس والرباط ومراكش، والقيروان، والقاهرة، وإسطنبول، ودمشق وبغداد، وسامراء وأصفهان وكاشان وشيراز وتبريز وحيرات ولاهور وأجرا ودلهى ومدن كشمير القديمة.

وبناءً على سبق عرضه عن الوضع الحالى للحدائق التاريخية بالعالم العربى سنكتفى فى هذا الفصل باستعراض مختصر للأمثلة المهمة تاريخيًا والباقية حتى الآن خارج البلاد العربية، والتى من الممكن القول بأنها من أهم العلامات البارزة فى تاريخ الحدائق الإسلامية وحقل عمارة البيئة فى عالمنا الحاضر.



حديقة الأزهر بمدينة القاهرة

أنشئ هذا البستان الضخم على مساحة ٧٥ فدانا بجوار قاهرة الفاطميين الأثرية كهدية من مؤسسة الأغاخان، بتكلفة ٣٠ مليون دولار.

٣- حدائق قلعة الحمراء (أسبانيا)

وتسمى أحيانًا «حدائق قصر الحمراء»، وقد أنشأها فى منتصف القرن الثالث عشر السلطان محمد الأول والمعروف بـ «ابن الأحمر»، وهو أول ملوك الدولة الناصرية (١٢٣٢ - ١٢٧٢).

ويجب الإشارة إلى أن الحكم الإسلامى فى أسبانيا بدأ فى عام ٧٥٥ على يد الأمير الأموى عبد الرحمن الداخل، وكان عبد الرحمن من القليلين الذين نجوا من أيدى العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية فى دمشق عام ٧٥٠. واستطاع تأسيس الدولة الإسلامية، واتخذ قرطبة عاصمة لها؛ وبهذا أصبحت بلاد الأندلس إقليمًا مهمًّا على خريطة العالم فى هذا العصر.

وبقيت دولة الأندلس فى أسبانيا تحت ظل حكومة مركزية حتى القرن الحادى عشر عندما انقسمت إلى دويلات صغيرة وإمارات متعددة يحكم كل مدينة أمير من أمراء البربر وأمراء بنى أمية، وكان أحدهم هو السلطان محمد الأول بن الأحمر مؤسس قلعة الحمراء، وكان حاكمًا على مدينة غرناطة بجنوب أسبانيا. وتقع هذه القلعة على هضبة شديدة الانحدار بشرق المدينة؛ مما يسمح لسكان القصر بالاستمتاع بمنظر غروب الشمس عند إطلالهم على المدينة من أعلى وعلى خط الأفق البعيد.

وتصل مساحة القلعة إلى حوالى أحد عشر فدانًا، وتشمل عدة حدائق صحن محوطة بالمبانى أو الأسوار وأكثرها شهرة هو «صحن الأسود ـ Court Of The Lions» وكذلك صحن الريحان أو «صحن البركة ـ Court Of Myrtle،» ويضم مجمع قلعة الحمراء عناصر أخرى مهمة مثل «ديوان السفراء ـ Hall Of The Ambassadors» وفناء السلطان و«قاعة الأختين ـ Hall Of The Two Sisters» إلى جانب برج قمارش وجدران الحصن المحيطة والقصر الملكى والمعروف «الكازار (القصر) ـ Alcazar».

وقد تم تشييد المبانى والحدائق داخل القلعة على مراحل زمنية؛ حيث أضاف كل سلطان جديد حديقة أو بهوًا أو مبنى جديدًا على المجموعة. وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ الملك يوسف الأول فى منتصف القرن الخامس عشر صحن البركة / صحن الريحان .

ويختلف المؤرخون وعلماء تاريخ الفن فيما إذا كان صحن الأسود المشهور فى قصر

الحمراء يعود إنشاؤه إلى القرن الحادى عشر أو إلى القرن الرابع عشر أثناء ولاية السلطان محمد بن الأحمر الخامس، ويعتقد بعض المؤرخين أن المبنى المحيط بهذا الصحن قد بنى لتجميل الصحن، ولتحديد الفراغ المعمارى، على عكس ما هو سائد اليوم فى حقلى العمارة والتصميم العمرانى.

وعند سقوط دولة الإسلام فى أسبانيا وهزيمة جيوشها أمام جحافل الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا فى عام ١٤٩٢، استولى الحكام الجدد على قصر الحمراء وملحقاته. وفى القرون التالية، عانى القصر من بعض الإهمال، بل وتجرأ الملك شارل الخامس فى منتصف القرن السادس عشر على هدم بعض أجنحة المجموعة لبناء قصر له على الطراز الإيطالى بدون تناسق وتناغم مع العمارة الإسلامية الغالبة على منشآت الحصن المختلفة.

ونظرًا لاختفاء معظم الحدائق الإسلامية التى أنشئت بغرناطة خارج جداران القلعة الحمراء عبر القرون المتعاقبة، فقد اعتمد أكثر الباحثين على حدائقها كنموذج أساسى لدراسة عناصر تصميم حدائق الأندلس بصفة عامة.

ويختلف مع هؤلاء تمامًا فى هذا التعميم البروفيسورة «دى. فيرتشيلد رجلز - D.Fairchild Ruggles» إذ تذكر فى أحد كتبها عن الحديقة الإسلامية:

«إن هذا التعميم قد أغفل عاملًا تاريخيًا مهمًا وهو أن قصر الحمراء قد تم تشييده فى عصور الانحسار والتراجع لدولة الأندلس الإسلامية، بينما بنيت مدينة الزهراء مثلا فى صدر الوجود الأموى وقمة ازدهاره وسيطرته على مدن الأندلس».

وعمومًا، فإن حسم هذا الخلاف قد يستدعى القيام بأبحاث مكثفة للمخطوطات القديمة التى تحتوى على وصف الحدائق الإسلامية من خلال قصائد الشعراء الذين عاصروا هذه الحقبة من أمثال ابن زمرك وابن حقان، كما يستدعى انتظار نتائج التنقيب والبحث الجارى فى الموقع الأثرى لمدينة الزهراء.

ومن المهم الإشارة إلى أنه بعد فترة طويلة من الإهمال والتدهور، أعلنت الحكومة الأسبانية فى عام ١٨٧٠ أن قلعة الحمراء أصبحت موقعًا من المواقع القومية التراثية، وبدأت أعمال الترميم والصيانة والتطوير منذ هذا التاريخ حتى صارت الآن صرحًا

جاذبًا لملايين السياح والباحثين، كما تم ترشيحها للانضمام للقائمة الجديدة المقترحة لعجائب الدنيا السبع.

ومن المعروف أن أهم الكتب التراثية التى تحدثت عن تصميم الحدائق الإسلامية فى الأندلس هى كتب ابن العوام وابن ليون وابن وافد. ورغم أن مخطوطات هؤلاء لم تكن أبحاثًا أصيلة بل تطويرًا وتنظيمًا لما هو متداول عن عمارة البيئة وهندسة البساتين، إلا أنها تعتبر المراجع الوحيدة التى ظلت محفوظة بشكل كامل حتى يومنا هذا، وتتميز هذه الكتب بالتوجيهات الدقيقة فى موضوع اختيار الموقع للمسكن والبئر والمظلة الخارجية أو الخيمة، وأماكن زراعة الأشجار وعلاقتها بالحديقة والاتجاهات الأصلية.

أما فى العصر الحديث فيعتبر كتاب المؤلف الأمريكى «واشنطن إيرفينج ـ Washington Irving» من أفضل كتب الرحلات الذى تناول قصر الحمراء وتاريخه.

وقد ولد واشنطن إيرفينج عام ١٧٨٣ فى أمريكا، وهو ينتمى إلى الجيل الأول من الكتاب الأمريكين، وقد نال شهادة الحقوق ولم يمارس المهنة إلا نادرًا وانصرف للكتابة، وقد زار هذا الرجل بلاد الأندلس واستقر فيها لمدة عامين باحثًا عن كنوز الآثار والأدب العربى والثقافة الإسلامية. وبعد جمعه هذه المادة الثرية، أصدر كتابه الشهير المسمى «الحمراء ـ The Al Hambra» فى الولايات المتحدة، ولاقى نجاحًا كبيرًا عند توزيعه هناك. وبعد سنوات معدودة، رجع إيرفينج إلى أسبانيا كسفير لبلاده فيها، ويعتبر من أوائل المستشرقين الأمريكين الذين اهتموا بالثقافة العربية الإسلامية. وقد جاء كتاب «الحمراء» فى واحد وثلاثين فصلًا، شملت رحلات المؤلف فى بلاد الأندلس ووصف الآثار الباقية من الحضارة العربية، ويحتوى الكتاب أيضًا على فصول خاصة عن قلعة الحمراء مثل «فى داخل قصر الحمراء، والقاعات الغامضة، وصحن الأسود، والحكم وكاتب العدل، والحمراء فى ضوء القمر، وسكان الحمراء، وزوار الحمراء، وبهو السفراء، والمؤلف فى وداع الحمراء، وأسطورة وردة الحمراء» إلى جانب القليل من الحكايات الأسبانية. وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذ إبراهيم الإبيارى فى الستينيات، وصدر عن دار المعارف فى مصر، ولكنه للأسف لم يلق الاهتمام الكافى فى الدوائر الثقافية والعلمية فى العالم العربى.

ومع بدايات الثورة المعلوماتية الحديثة والتطور الجبار فى مجال الحاسوب

الإلكترونى، حدثت طفرة متوازية فى تدوين وتوثيق تراث الأندلس الإسلامى. ويتضح هذا فى المواقع الجديدة على الشبكة العنكبوتية الدولية للمعلومات، مثل الموقع المسمى بالأندلس http//www.andalucia.com، ويحوى هذا الموقع أقسامًا تركز على وصف مكتوب وعرض بالصور والخرائط لأماكن مهمة مثل مدينة الزهراء، وما تبقى من قصور ومساجد وحدائق الأندلس. وفى عام ٢٠٠٦، ساهمت المجلة العالمية «سعودى أرامكو وورلد ـ Saudi Aramco World» بدراسة عن حدائق قصر الحمراء عن طريق إنشاء موقع جديد على الشبكة المعلوماتية تحت عنوان http://www.saudiaramcoworld.com، وتحوى هذه الدراسة على مجموعة هائلة من الصور المجسمة والجولات المرئية المدعومة بالتعليق الصوتى والتى تسمح للمشاهد بتقريب اللقطات وتغيير زوايا الرؤية والعروض البانورامية، وقد تم إعداد هذا البرنامج بالتعاون بين المجلة وقسم الفنون الجميلة «كلية ويليامز ـ Williams College» بالولايات المتحدة الأمريكية.

٤- بستان شالامار باغ (باكستان)

يقع هذا البستان فى مدينة لاهور بباكستان، وهو مقام على مساحة ٢٠ فدانًا، وقد أنشأ هذا البستان الإمبراطور «شاه جهان» ليتريض فيه مع زوجته الحبيبة «ممتاز محل». وشالامار باغ كلمة فارسية معناها «مقر الحب والسعادة».

ولا شك أن شاه جهان تأثر فى طفولته بزيارة بساتين كشمير الرائعة، التى تفوقت فى تصميمها وتخطيط موقعها عما كان موجودًا من قبل فى مدن مثل أجرا ولاهور ودلهى؛ ولهذا فيعتقد المؤرخون أن الفكرة الرئيسية التى غلبت على ذهنه عند إنشاء شالامار باغ كان إعادة حلم طفولته وذكرياته فى كشمير، وتحقيقه على ضفاف نهر رافى فى مدينته الجديدة لاهور.

ويجب الإشارة هنا إلى وجود ثلاثة بساتين بالاسم نفسه، ولكن فى مدن مختلفة غير لاهور. أما الآخران، فموجودان فى مدينة دلهى بالهند ومدينة سرينارجار بإقليم كشمير. ويعتقد أغلب المؤرخين أن بستان شالامار باغ المقام فى لاهور هو تحفة فن تصميم الحدائق، ويتكون البستان من ثلاث رياض متعاقبة على مستويات مختلفة من

الأرض، إذ ينخفض كل مستوى بمقدار خمسة أمتار عن الذى يسبقه. والبستان مصمم على الطراز الفارسى، وبه ثلاث بحيرات تهمر فيها المياه فى صورة شلالات بين كل مستوى وآخـر، وتزينها ٤٠٠ نافورة، ويجلب إليها الماء بقناة خاصة من نهر مجاور، وفى البستان مقاصير ملكية مبنية بالرخام يحيط بها آلاف الأشجار من السرو والحور، والفاكهة وخمائل الزهور ذات الرائحة الزكية.

ويعتقد بعض المؤرخين مثل «جون بروكسى ـ John Brooks» أن فن تصميم الحديقـة الإسلامية قد بلغ قمة نضجه فى بستان شالامار باغ المقام فى إقليم كشمير الذى أنشأه الإمبراطور «جاهان جير» والد الإمبراطور شاه جاهان، ويفسر بروكسى تقييمه هذا بناءً على اقتراب عناصر التصميم من أوصاف وإيحاءات جنة الفردوس كما شملها القرآن الكريم والسنة النبوية.

وبغض النظر عن التقييم الفنى واختلافه من ناقد إلى آخر أو بين مؤرخ وآخر، فيميل المؤلف للاعتقاد أن حدائق دولة المغول عمومًا تشتهر بعدة مميزات مثل ينبوع متدفق من الجبال المحيطة، وحقول منحدرة عبر الوادى ومساحات شاسعة، وبراعة ملحوظة فى فكرة تصميمها، وفى أعمال هندسة الرى، واختيار المواقع فى أحضان الجبال أو على ضفاف الأنهار، كما تتميز عناصرها الإنشائية بطراز معمارى رفيع وزخرفة فنية باهرة.

وتبدو البراعة فى اختيار ومعالجة الموقع واضحة فى علاقة شالامار باغ بالبيئة الطبيعية المحيطة به فى الطرف الشرقى لمدينة لاهور. ولو تصور القارئ رحلة الزائر لهذا البستان فى تلك العصور؛ لأدرك العلاقة الوثيقة بينه وبين النهر المجاور «نهر رافى ـ Ravi River»، فقد أقيم البستان بمفرده على الضفة وامتدت مصاطبه الثلاثة محتضنة الوادى فبدأ البستان على مرمى البصر وكأنه واحة خضراء وارفة منتظمة على عكس بيئته المحيطة الجافة، والمسطحة، والمليئة بالأعشاب البرية.

وتعتبر حقبة حدائق إمبراطورية المغول فى القارة الهندية من أهم العصور لأى باحث أو دارس لفن تصميم الحدائق، وتعود هذه الأهمية لاعتبارات متعددة، أهمها أن أعدادًا ليست بقليلة قد تم إنشاؤها فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وما زالت موجودة أو مدونة بدقة من خلال مذكرات الرحالة الأوروبيين، أو فى الرسومات المحفوظة أو فى المواقع الأثرية الكثيرة والموجودة حتى يومنا هذا. وقد احتلت دولة



بساتين المغول الإسلامية

تشتهر حدائق دولة المغول فى شبه القارة الهندية بوجود ينبوع متدفق من الجبال المحيطة، ويحيط بالبستان حقول زراعية عبر الوادى الممتد حوله.

المغول أجزاءً كبيرة من بلاد فارس وتأثرت بشدة بحضارتهم؛ نظرًا لأن قبائل المغول لم تكن صاحبة حضارة أو فن.

ومن المعروف تاريخيًّا أن «تيمورلنك» جلب أعدادًا كبيرة من الفنانين والمعماريين والشعراء والحرفيين ليساعدوا فى إنشاء عاصمة مملكته الجديدة فى مدينة سمرقند، وهى التى تعتبر حتى اليوم قمة تاريخية فى فنون العمارة وتخطيط المدن وتصميم الحدائق، وقد سجل «دى كاليفيجو ـ Decalvijo» فى كتاباته الرسمية وصفًا مسهبًا لسمرقند عندما كان يعمل سفيرًا لأسبانيا لدى الإمبراطور تيمورلنك.

وقد انتشر فن تصميم الحدائق عند إمبراطورية المغول الإسلامية بالقارة الهندية فى القرن الخامس عشر؛ أى بعد سنوات معدودة من رحلة كرستوفر كولومبس واكتشافه القارة الأمريكية. وبلغ هذا الفن قمة ازدهاره فى خلال قرن ونصف قرن، أى إنه يتوازى تاريخيًّا

مع الحدائق الإيطالية المشهورة فى عصر النهضة. وتعتبر مدينة لاهور عاصمة البنجاب وكذلك مدينتا أجرا ودلهى أعظم مراكز الإمبراطورية المغولية، تلك الإمبراطورية التى أسسها القائد الفاتح «بابور» أى «الأسد»، وهو سليل تيمورلنك وجنكيز خان، وهـو أول من عبر ممر خيبـر فى أفغانستان ليفتح القارة الهندية، ويعتبر الإمبراطور «بابور» هو الرائد الأول وألمع الملوك التى اقترنت أسماؤهم بحدائق المغول الإسلامية، وقد ولد فى عام ١٤٨٣ وتوفى فى عام ١٥٣٠، وحاز أهمية خاصة لمساهمته فى إنشاء الكثير من الحدائق منذ صباه حينما حكم مملكة أوزبكستان ثم بعد انتقاله لمدينة كابول، حيث اتخذها عاصمة لمملكته وأنشأ فيها أول حديقة المسماة «روضة الوفا ـ Bagh-i-wafa».

وقد التزم بابور فى تصميم حدائقه فى كابول وجلال أباد ودلهى وأجرا رغم اختلاف جغرافية موقع كل منها بالطابع الهندسى والخطوط المستقيمة فى كل عناصر التصميم.

وقد اندهش الشعب الهندى من إصراره على تحويل أى نهر أو جدول أو ترعة أو مجرى مائى من خطوط منحنية طبيعية إلى قناة مستقيمة أو شبكة هندسية متعامدة، كما هو العرف فى حدائق بلاد فارس وحدائق مدينة سمرقند التى بهرته منذ كان طفلًا صغيرًا.

وبالرغم أن الإمبراطور بابور قد حمل معه إلى سفوح بلاد الهند الشديدة الحرارة والمليئة بالعواصف الترابية الأفكار المتميزة للحديقة الإسلامية المنتشرة فى بلاد فارس، إلا أن أولاده وأحفاده وخاصة من كان منهم ذا ولع بفن تصميم الحدائق وعلوم النباتات قد تحولوا بهذا الحقل الفنى إلى آفاق جديدة واسعة، وأضافوا من خلال أعمالهم جوانب متميزة عبر التاريخ. ويظهر واضحًا أمام أى ناقد فنى أو مؤرخ مدقق للحدائق التى شيدت فى عصر دولة المغول بالقارة الهندية أن كل من ساهم فى هذه التصاميم لا بد وأن يكون على درجة عالية من الحساسية المرهفة، وعلى دراية متعمقة بالقواعد الأساسية للفنون الجميلة، وعلى فهم تفصيلى لعلوم النبات وتقنية هندسة التربة والرى والصرف.

وتشير بعض الوثائق التاريخية والرسوم الأثرية إلى أن فريق التصميم كان يضم فى كثير من الأحيان الملك أو الأمير الذى يمتلك القصر أو الدار. وعمومًا فإن أغلب حدائق المغول الشهيرة بنيت فى عصر الأباطرة الستة الأوائل بداية من بابور، وهمايون، وأكبر، وجيهابخير، وشاه جيهان، وأخيرًا أورنجزيب.

ويبدو أن غـزو الإمبراطور أكبر لإقليم كشمير فى عام ١٥٨٦ وضمه إلى إمبراطوريته كان نقطة تحول فى فن تصميم الحدائق، خاصة وأن البساتين التى تم إنشاؤها فى عصر ابنه جيهان جير وحفيده شاه جيهان هى أروع ما أنتجته دولة المغول فى عصورها الذهبية، وأشهرها شـالامار باغ بمدينة لاهـور وتاج محل فى مدينة أجرا ونيشات باغ بكشمير.

ومن الواجب التنويه أن دراسات وبحوث الحدائق الإسلامية لدولة المغول قد حظيت بنصيب كبير من الاهتمام فى أوروبا وأمريكا الشمالية، ويبدو هذا واضحًا فى التعاون الملموس بين متحف سميثسونيان الأمريكى «معهد سميثسونيان ـ Smithsonian Institute» مع مجموعة كبيرة من أثرياء وأطباء الجالية الباكستانية فى الولايات المتحدة، ووزارة الثقافة الباكستانية ووزارة الخارجية الأمريكية، وكلية العمارة فى لاهور، إلى جانب الكثير من الأكاديميين المهتمين بدراسات وأبحاث الحدائق التاريخية فى عصور إمبراطورية المغول بالقارة الهندية. وقد تبلور هذا التعاون الوثيق فى تطوير دائرة معارف متكاملة باللغة الإنجليزية عن الحدائق الإسلامية التاريخية فى باكستان، وبدأت فى العمل منذ عام ٢٠٠٢ على موقع الشبكة العنكبوتية الدولية تحت العنوان التالى http://www. mugholgardens.org، ويحتوى هذا البنك المعلوماتى المتميز على شرح مستفيض وخرائط ورسومات وصور لأحد عشر موقعًا لأهم البساتين الإسلامية التاريخية فى أقاليم باكستان المختلفة. وتتولى حاليًا شركة «سميثسونيان للإنتاج ـ Smithsonian Production» إدارة المشروع تحت إشراف المتحف الوطنى الأمريكى فى واشنطن. ويبدو أن السياح وكافة زوار باكستان يستفيدون فائدة جمة من المعلومات الموثقة على هذا الموقع، كما يستمتعون بمنتخبات الصور والموسيقى التى تصاحب هذه المعلومات.

٥- حدائق بلاد فارس (إيران)

ترجع جذور حدائق الفرس تاريخيًا إلى القرن السادس قبل الميلاد خلال عصر الإمبراطور سايروس الكبير، خاصة فى قصر باسرجادا القريب من مدينة أصفهان. وبعد دخول الإسلام إلى بلاد فارس فى القرن الثامن، أصبح تأثير هذه الحدائق على الكثير من الأقطار الإسلامية الأخرى واضحًا.

وقد تطور حقل عمارة البيئة فى فارس عبر القرون كما ظهر جليًّا فيما شيد من حدائق وبساتين ومدن وميادين خلال عصر الدولة الغزنوية والتيمورية ثم الدولة الصفوية وأثناء فترات حكمهم لبلاد فارس وبعض الدول المجاورة، وتعتبر أصفهان وشيراز وتبريز وقزوين وكاشان وكرمان من أهم المدن التى احتوت على أمثلة بديعة من الحدائق الإسلامية المتميزة فى بلاد فارس.

وقد احتوى الشعر الفارسى فى تلك الأزمان على قصائد رائعة تتغزل فى هذه الحدائق المقامة أو فى حدائق تخيلية فى ذهن شعراء هذا العصر من أمثال فخر الدين جورجانى وصائب التبريزى، وقد كان سائدًا فى أشعار هذه الحقبة تشبيه المحبوبة بالحديقة الجميلة وما يطرأ عليها من فرح وبهجة وسرور أو حزن.

ويعتقد الكثيرون من مؤرخى عمارة البيئة مثل «ريتشارد فولتز ـ Richard Foltz» أن فكرة النموذج السماوى فى تصميم الحدائق الإسلامية قد نبع من تراث بلاد فارس فيما قبل البعثة المحمدية، وتدريجيًّا بعد الفتح الإسلامى لفارس، تأسلم هذا النموذج واستوحى من آيات القرآن الكثير من المصطلحات الفنية لإثراء هذه الحدائق ولتعميق الأبعاد الفلسفية والروحانية لمخطط كل بستان وروضة ومدينة.

وتعتبر مدينة أصفهان بالذات درة المدائن الفارسية الخضراء، فقد تم تخطيطها على هيئة بستان كبير فى عصر «شاه عباس»، وقد كان أهم إنجاز لهذا الملك هو تطوير مساحة شاسعة من الأرض بين مدينة أصفهان القديمة وبين نهر «زاينده ـ Zayandeh»، وإضافة طريق «شاهر باغ ـ Chahar Bagh Av»، وكذلك تشييد «جسر خو اجو ـ Khwaju Bridge» الذى يعتبر تحفة فنية فى حقل التصميم العمرانى منذ بنائه عام ١٦٥٠ وحتى يومنا هذا.

ولا شك أنه ما زالت هناك بعض الحدائق الإسلامية التاريخية متبقية فى إيران الحديثة، ولكن لا يوجد بينها موقع أثرى كامل المعالم يمكننا من الادعاء أنه يمثل نموذجًا لروح ومضمون الحديقة الإسلامية فى تلك البلاد، كما كانت فى أزهى عصور حضارات الدولة الغزنوية أو التيمورية أو الصفوية. فما تبقى من تلك الحدائق والبساتين إما قد تم إهماله وتدهورت صيانته حتى تبقى منه الهيكل العام فقط الذى من خلاله قد نتخيل منه تصورًا عامًّا للتصميم ولكن لا نتعرف منه على تفاصيل كافية لعناصره النباتية والمائية والتكوين

المرئـى وتشكيل الألوان والملمس، وإمـا حدائق قد تم تحويرها وتغيير معالمها لدرجة التشويه والتلاشى، وذاب روح التصميم فى تشكيلات أجنبية غريبة على تراث الحديقة الإسلامية الأصيل.

ومن الممكن تقسيم الحدائق الإسلامية فى بلاد فارس إلى نوعين رئيسيين:

١- حدائق مدرجات: وأغلبها شيدت فى أحضان الجبال والتلال.

٢- حدائق مسطحـة: وأغلبها شيدت فى الأراضى المنبسطة والسهول والوديان.

ومن أمثلة حدائـق المدرجات «باغى تخت ـ Bagh - E - Takat» فى مدينة شيراز و«باغى شاه جولى Bagh –E-Shah Goli» فى مدينة تبريز.

ويشير الباحث الأمريكى آرثر إيفانز من جامعة كاليفورنيا أن كلا البستانين اللذين تم إنشاؤهما فى عصر الدولة الكجارية قد أصبحا الآن فى حالة من التردى وسوء الصيانة بحيث يصعب ترميمهما مستقبلًا. وعند التحليل المتأنى لكلا الصرحين من وجهة نظر العمارة البيئية، نجد أن الفكرة التخطيطية متشابهة من حيث اختيار الموقع، فقد اعتمد على توفر ينبوع مائى تم اكتشافه فى الجبل المجاور للمدينة، وعلى أساسه تقررتشييد هذا البستان. أما من حيث عناصر التصميم فيضم الموقع عدة روضات على مستويات متدرجة الارتفاع ويتخللها فى المنتصف حوض ينسكب فيه الماء من سفح الجبل إلى أسفل البستان على شكل شلالات صغيرة، كما تضم المجموعة «دايريش» أو بحيرة صغيرة ترمز إلى الأنهار الجارية فى جنات الخلد، وأقيم على ضفتها مبنى صغير أو ما يسمى فى الفارسيـة «كشك» للاستمتاع بالمنظر الجميل ونسائم البحيرة العليلة. أما الأشجار التى بقيت حتى الآن فإنها تشير أن مصمم هذه الحدائق استخدم الموالح، مثل أشجار البرتقال والليمون إلى جانب أشجار الصنوبر والكثير من الزهور والورود.

أما الحدائق الفارسية المسطحة فتضم بستان «باغى شاه ـ Bagh –E-Shah» فى مدينة فين بمنطقة كاشان، وباغى إيرام بمدينة شيراز، التى تعتبر أضخم حديقة فى إيران اليوم بالرغم من تلاشى معالمها الأصلية كبستان رغم بقاء المبانى المعمارية التقليدية لهذا العصر بحالة جيدة، ويشير إلى اهتمام المصمم الأصلى باستمرارية العلاقات بين الفراغات الخارجية للبستان والفراغات الداخلية للمبانى.



الخاتمة



الفن الإسلامى ليس بالضرورة هو الفن الذى يتحدث عن الإسلام، وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر أو الحث على اتباع الفضيلة، وليس هو الحقيقة المجردة للعقيدة، مبلورة فى صورة فلسفية.

ليس هذا أو ذاك فنًّا على الإطلاق، إنما هو الفن الذى يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود. وهو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الإسلامى لهذه المعانى.

كما أشار الكاتب محمد قطب: «إن الفن الإسلامى هو الفن الذى يهيئ اللقاء الكامل بين «الجمـال» و«الحـق»:

فالجمال حقيقة فى هذا الكون.

والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود».

نستخلص من الفصول السابقة لهذا الكتاب عدة نقاط أساسية وأهمها ما يلى:

أولًا: إن الحديقة الإسلامية تعتبر فنًّا مستقلًّا عن علوم النبات والبساتين أو فن الهندسة المعمارية بالرغم من علاقته الوثيقة بهما. ولا شك أن الحديقة الإسلامية فى تطورها عبر التاريخ قد أكدت أنها تعبر بوضوح عن ثقافة قوية نابعة من قيم أخلاقية متميزة، قائمة على حضارة راسخة.

وحيث إن حقل تصميم الحدائق الإسلامية هو بالضرورة تعبير عن مجتمع مسالم

يسعى لعمران الأرض ويحترم الطبيعة، فإنه من الضرورى دراسة وشرح وتقديم هذا التراث الرائع للمجتمعات العربية والغربية والعالمية على السواء، خاصة فى هذا القرن الذى تتهم فيه بعض وسائل الإعلام الغربية المغرضة الإسلام والمسلمين بأنهم أعداء للسلام وللإنسانية، والذى تتصادم فيه حضارات العالم بين من يندفع بقوة وحماس تجاه التكنولوجيا والعلوم وفكر العولمة والسوق المفتوح، وبين فئات أخرى تؤكد على مبادئ صيانة البيئة الطبيعية، وترشيد الاستهلاك، والحفاظ على التراث الحضارى للأمم، والالتزام بالمثل العليا تجاه مسيرة التنمية الاقتصادية.

ثانيًا: تؤكد لنا الشواهد أن الإنسان العربى واحتياجاته الإنسانية ومناخ بيئته المحيطة، ومعتقداته الدينية، وتكوينه الثقافى لا يتغير بطريقة شاملة. وبناءً على ذلك فمن المنطقى أن يظل تراثه الحضارى متمثلًا فى فن تصميم الحدائق بدون تغيير جذرى أو أساسى فى مبادئ وأهداف وعناصر تكوينه الفنى والمعمارى.

ثالثًا: نحن اليوم إذ ندعو إلى إحياء التراث الفنى وإلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تصميم الحدائق وتخطيط الموقع، فليس القصد أن نتمسك بحرفية الطراز الإسلامى التاريخى وتفصيلاته، وبالتالى نطلب إيقاف حركة الإبداع والتجديد. ليس هذا هو القصد بأى حال من الأحوال؛ ذلك أن إحياء التراث الحضارى الإسلامى يعنى ببساطة التجديد الواعى والحكيم على أساس استيعاب مميزات الأصالة التراثية وابتكارات العصر، كما يعنى أن يصبح تصميم مواقع الحدائق والشوارع والميادين والمساجد والمبانى العامة فى المدينة العربية ذا شخصية واضحة، وليس تقليدًا حرفيًّا للآخرين، وفى الوقت نفسه يكون ملائمًا لظروفنا المعاصرة وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية.

رابعًا: الواجب أن نذكر أننا لا نلوم المعماريين أو مخططى المدن، أو الجهات الحكومية، أو الجامعات العلمية فى العالم العربى أو غيرهم، فذلك أمر لا يفيد الآن فى تدارك ما حدث، وذلك فضلًا عن أن هناك العديد من العوامل التى أدت إلى الوضع الحالى، ولكننا نأمل أن يكون للمحاولات الجادة المصداقية فى المستقبل والاستمرارية والانتشار فى الأقطار العربية المختلفة سواء فى المشرق أو المغرب العربى.

ولعل الجميع قد اقتنع بعد قرون من التغريب والتقليد والحيرة الثقافية أن التميز

الحضارى والاحتفاء بالتراث الفكرى والروحى لكل أمة من الأمم، وعلى رأسه فن تصميم الحديقة الإسلامية هو ضرورة لإثراء المستقبل وتطوير الحاضر.

خامسًا: من ناحية أخرى فإن تكن المدينة العربية قد فقدت هذا العنصر الحيوى الذى ميزها عبر التاريخ، وهو عنصر العلاقات المتناسقة بين البيئة الإنسانية بمبانيها ومنشآتها وبين بيئتها الطبيعية بعناصرها المختلفة، فما زال أمامنا فرصة لإعادة تغليب هذا التراث الحضارى بعد تطويره بما يتلاءم مع العصر، وتطبيقه فى المدن العربية الجديدة والأحياء السكنية التى تتجه النوايا إلى تطويرها وتجديدها فى شتى أنحاء العالم العربى بالذات. وبإيجاز، فإن الفرصة ما تزال واسعة أمام إعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا.

وشعبنا العربى الذى عرف التوطن الحضارى قبل الكثير من شعوب العالم المتقدمة الآن، قادر على النهوض فى هذا المجال، وتجيش فى صدوره الكثير من الآمال والطموحات فى مدن وأحياء سكنية أفضل جودة مما هو سائد الآن، وبالتالى إلى غدٍ أكثر إشراقًا.

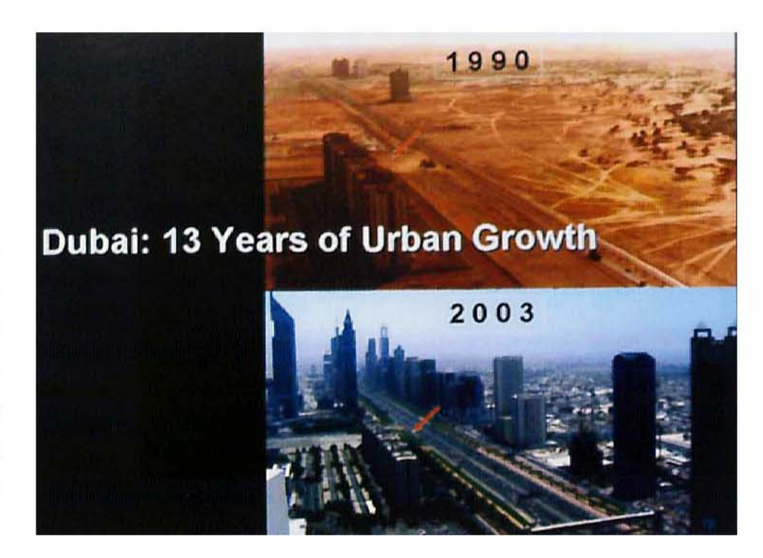
سادسًا: إن الاهتمام بتطوير ودراسة تاريخ الحديقة الإسلامية لا يعنى الاهتمام بالطبقات الثرية أو أغنياء القوم وأصحاب القصور، فقد أشارت الدراسات إلى أن الحديقة الإسلامية بأنواعها المختلفة لم تكن حكرًا على هذه الطبقات العليا من المجتمع، بل انتشرت فى كل ضواحى وأركان المدن الإسلامية القديمة. إن الاهتمام بالحديقة الإسلامية يعود أساسًا إلى أنها كانت قمة الإبداع فى حقل عمارة البيئة وتحفة الإنجاز فى مجال تصميم المواقع، وستظل الحديقة مصدرًا مهمًّا للرمزية والتصوير الرومانسى فى خيال الشعراء العرب فى الماضى والحاضر، وستظل نموذجًا حيًّا لثقافة ثرية وأفكار متدفقة ومثاليات رفيعة وروحانيات نبيلة.

سابعًا: من المهم الإشارة إلى أن الحديقة الإسلامية ليس لازمًا أن تكون حديقة تم تصميمها بواسطة إنسان يدين بالإسلام، كما أنه ليس ضروريًّا أن يتم إنشاؤها فى مجتمع مسلم، ولكن المهم فى هذا النوع من الحدائق هو تميزه بمراعاة مبادئ تصميم معينة مثل الاقتصاد فى استعمال المياه، وتوفير الخصوصية لمستعمليها، والتربية على تحقيق التوازن بين الاستعمالات الانتفاعية والجمالية، ومخاطبة الحواس الخمسة، إلى جانب

ملامسة الجانب الروحى من خلال الرموز أو الأقوال المأثورة وأبيات الشعر المحفورة على جداريات الحديقة وعناصرها المعمارية، إنه يستخدم عناصر فنية معروفة، ويسعى إلى تحقيق أهداف محددة من وراء هذا التصميم. ومن الواضح من الآثار الباقية من عصور الإمبراطورية الإسلامية أن هذه الحدائق قد انتشرت فى ثلاث قارات هى: آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأنها اتسمت بطابع فريد وشخصية متميزة رغم تباعد المسافات بين بعضها والآخر، ورغم اختلاف قوميات من قاموا على تصميمها وإنشائها، بل وأيضًا تفاوت أوقات إنشائها، فقد امتدت نماذج الحديقة الإسلامية من القرن الثانى عشر إلى القرن التاسع عشر. وتتعدد تسميات الحديقة الإسلامية فى أدبيات المجتمعات العربية والإسلامية لتشمل ألفاظًا ومصطلحات شتى، مثل «حديقة» و«بستان» و«جنة» و«روضة» و«متنزه».

ثامنًا: إن دور التعليم الجامعى فى مجال إعداد الطاقات البشرية لحقل عمارة البيئة يبقى دورًا مهمًّا وأساسيًّا وغير تقليدى، فالمطلوب فى المناهج المقررة أن تقدم لكل طالب مزيجًا من التفكير العلمى والإبداع الفنى والحساسية الثقافية والمعرفة بالإرث التاريخى؛ ولذا فإن التحدى الحالى فى حقل عمارة البيئة يشمل ندرة العاملين فى هذا المجال، والاحتياج إلى تنوع الدراسات الأكاديمية الخاصة بإعداد الخريجين؛ لأن حاجة المدن العربية الآن تتعدى توفير إخصائى عمارة البيئة العادى أو النمطى، فتحديات البيئة العمرانية تستدعى إلى جانب هذا مهندس تنفيذ المواقع، والمشرف على الصيانة، والمدرس الذى يقوم بالتدريس الجامعى، والباحث الذى يهتم بكتابة المؤلفات الجديدة عن هذا الحقل، والاستشارى الذى يساهم فى تطوير القوانين واللوائح والإرشادات التطبيقية، والناقد الذى يساهم بالنشر والكتابة فى المجلات العلمية والتحكيم فى المسابقات المحلية والدولية.

وما من شك أن مسؤولية حقل تصميم المواقع أثقل من الماضى؛ لأنه تطور وأصبح فنًّا اجتماعيًّا ملتزمًا ومرتبطًا باحتياجات المجتمع كوحدة، ولأنه يواجه التحدى الصعب فى خلق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا عن يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًّا إذا لم يحسن التخطيط لها.



حقل عمارة البيئة

أصبحت مسؤولية مهندس عمارة البيئة أثقل من الماضى؛ لأن عليه حل مشاكل بيئة عمرانية معقدة، وأعداد كثيفة من سكان المدن المعاصرة.

وقد كان مصمم المواقع فى الماضى يلبى متطلبات أفراد قلة فى دورهم وقصورهم، بينما تقع عليه اليوم مسؤولية أن يحل مشاكل بيئة متكاملة معقدة وأعداد كثيفة من السكان فى التجمعات الحضرية؛ ولهذا يعتقد الكثيرون فى أنه قد يكون من الصعب الاعتماد على الجامعات وحدها لإعداد الشباب العربى لمزاولة مهنة تصميم المواقع دون تمهيد أو خلفية سابقة. ولذا يحسن البدء بتلقين مبادئ احترام الطبيعة وفهم الظواهر البيئية المختلفة فى المراحل السابقة للتعليم الجامعى (الابتدائية ـ الإعدادية ـ الثانوية)، فهذا الحقل من المعرفة ما هو إلا فن بشرى يعتمد على البديهيات، وعلى استيعاب تراث حضارى مرتبط بالوطن العربى، ولا شك أنه من الممكن تبسيط قواعد هذا العلم مثلما حدث الآن مع علوم الرياضة والفضاء والذرة، بحيث يكتسب أطفالنا وشبابنا تدريجيًّا قدرات التفكير المتأنى، وثمار النظرة الموضوعية الشاملة؛ وبذلك ترتفع ثقافتهم العامة وسلوكهم الاجتماعى الملتزم نحو البيئة الطبيعية المحيطة بهم.

ولا شك أن دراسة وزيارة الشباب للحدائق الإسلامية الأثرية سيوفر فرصة نادرة لتأكيد بعض المبادئ العلمية والدينية والحقائق التاريخية، حتى يدركوا من خلال الخبرة الشخصية والزيارات الميدانية كيف استجاب أسلافنا لما حث عليه الدين الإسلامى من

الإبداع وتحسين العمل وعمارة الأرض، كما ذكر الحديث الشريف: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**». إن الإبداع فى تشييد حديقة أو مبنى أو بستان هو انعكاس للتعاليم الإسلامية عندما تصبح أسلوب حياة، وتصبح ممارسة المهنة نوعًا من العبادة والجهاد من وجهة نظر تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد أدرك الفنانون المسلمون هذا المنظور الروحانى للفنون؛ فأفرغوا أجمل ما أبدعته عبقريتهم فى العمارة تصميمًا وزخرفة وبناءً، وجودوا القرآن بأجمل الأصوات وأروع الترتيلات، وحسنوا الخط العربى بأجمل ما أنتجته أيديهم نقشًا وتكوينًا، ونسجوا السجاجيد بأبرع الألوان وأرقى التشكيلات، وصمموا الحدائق وشيدوا البساتين باحترام لا يخفى للبيئة الطبيعية وعزيمة لا تنقطع لمهمة مقدسة وهى عمارة الأرض، ودور خالد كخليفة للمولى جل وعلا، وعشق لا يفنى للفردوس الموعود بما يحوى من جنات وعيون وجداول وأعراش ومروج ورياض وكروم وبساتين وأنهار وأزهار، وطيور، وفواكه وظل ظليل وأغصان وارفة، وطيور صادحة، ونفوس مطمئنة وأرواح راضية مرضية.

وأخيرًا، فلعل هذه الجهود البناءة لمدارسة الحديقة الإسلامية عبر التاريخ وعلاقتها بتطوير وتحسين واقع المدينة العربية اليوم، لعله يكون طالع خير لأبناء هذه الأمة، ولعل الوقت قد حان للشعوب العربية عامة فى تحقيق آمال السكينة والصحة والسلامة فى مدائنها وقراها، ولعلنا جميعًا نستلهم فى هذه الجهود نفحات الشرق بما يوحيه من جمال بيئته الخاصة وتاريخه الملىء الممدود.

ولعل الناس حين يبحثون عن سعادة العيش وغبطة الحياة يستعينون عليها بمختلف الفنون الجميلة، ولعلهم يجدون من فن عمارة البيئة ومن ذكريات الحديقة الإسلامية أوسع نافذة لاسترواح المتعة والاطمئنان، ولتذوق الحياة الجميلة الوادعة.

صفى الدين عبد الحميد حامد

يوليو ٢٠٠٨

لوبوك ـ تكساس

الولايات المتحدة الأمريكية



المراجع



١- مراجع البحث العربية

١ - الجاك، سناء: «الحديقة الأندلسية: هندسة ترويض الطبيعة»، من كتاب شجرة الكون لمحى الدين بن عربى، جريدة الشرق الأوسط.

٢ - الفاروقى، إسماعيل: «الإسلام وفن العمارة» ـ مارس ١٩٧٨.

٣- المحرر: «الزراعة والنباتات فى الأندلس» ـ جريدة الشرق الأوسط ـ ٢١ فبراير ١٩٩٣.

٤ - الغسانى، أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغسانى (الشهير بالوزير): «حديقة الأزهار فى ماهية العُشب والعقار» ـ دار الغرب الإسلامى، حققه محمد الأعرابى الخطاب.

٥ - إقبال، محمد: «جناح جبريل» ـ دار ابن كثير، دمشق ٢٠٠٥.

٦ - حامد، صفى الدين ـ دور مصمم المواقع فى تطوير المدينة العربية، من كتاب «المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضارى الإسلامى» ـ المعهد العربى لإنماء المدن بالرياض ١٩٨٢.

٧- حمودة، عبد العزيز: اللغة العربية بيت الكينونة ـ جريدة الأهرام ٩ ديسمبر ٢٠٠٣.

٨- سراج الدين، إسماعيل: «التجديد والتأصيل فى عمارة المجتمعات الإسلامية» ـ جائزة الأغا خان للعمارة، جنيف ١٩٨٩.

٩- شتا، إبراهيم الدسوقى (ترجمة وشرح): «مثنوى مولانا جلال الدين الرومى» - المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.

١٠- عبد الحميد، بندر: «قصص عن الحمراء بلغة ألف ليلة وليلة» - جريدة الشرق الأوسط.

١١- عبد الحميد، سعد: «العمارة والفنون فى دولة الإسلام» - دارالكتاب العربى، القاهرة ١٩٨٦.

١٢- عجوة، عماد «الحدائق والبساتين: مكانة عظيمة فى تراثنا»، www.ikhwanonline.com

١٣- قطب، سيد: «فى ظلال القرآن» - دار الشروق، القاهرة ١٩٧٩ .

١٤- قطب، محمد: «منهج الفن الإسلامى» - دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣

١٥- مكارم، مى: «الأندلس رائدة فى الزراعة علمًا وتطبيقًا» - صفحة (٩) - جريدة الشرق الأوسط، ٢١ فبراير ١٩٩٣.

١٦- موسى، محمد العزب: «من لاهور إلى موهانجو» - جريدة الأخبار، ٥ نوفمبر ١٩٨٥.

١٧- ابن عربى، محى الدين: «شجرة الكون» - مكتبة عالم الفكر، القاهرة ١٩٨٧.

٢- مراجع البحث الأجنبية

- Al Faruqi, I. and Al Faruqi, L., **The Cultural Atlas of Islam**, New York: MacMillan Publishing Company, 1986.
- Ali, A. Yusuf (Translator), **The Holy Quran**, Muslim Students Association, 1975.
- Bianca, Stefano (Ed), **Karakoram: Hidden Treasures in the Northern Areas of Pakistan, Geineve: Age Khan**, Trust for Culture, 2005.
- Boortin, Daniel, U.S. News & Wold Report, March 5, 1984, page 73, History Teaches We Don't Know What We Think We Know
- Brookes, John, **Gardens of Paradise: The History and Design of the Greart Islamic Gardens**, New york: New Amsterdam Book, 1987.
- Carrol, David, et al, **The Taj Mahal**, New York: Newsweek Book Division, 1972.
- Chebel, Malek,**Sybmols of Islam**, New York: Barnes & Noble Books,
- Compton, Linda Fish, **Andalusian Lyrical Poetry and Old Spanish Love Songs: The Muwashshat and Its Kharja**, New York: New York University press, 1976.

- Conan, Michel, ed., **The Middle East Garden Traditions, Unity and Diversity: Questions, Methods, and Resources in a multiculltural Perspectives, Washington**, D.C.: Dumberton Oaks, 2007.
- Crowe, Sylvia and Sheila Haywood, **The Gardens of Mughul India**, London: Thames and Hudson, 1972.
- Dozy's R., **Histoire de L'Afrique du Nord et le Mughrib**, new edition, 1849.
- Eckbo, Garrett, **The Landscape We See**, New York: McGraw Hill, 1969.
- Evans, Arthur S., **Persian Gardens: Landscape Architecture in Iran**, Unpublished Master's Thesis, California State Polytechnic University, Pomona, 1977.
- Foltz, Richard, **Spirituality in the Land of Noble**, Oxford: Oneworld Publisher, 2004.
- Grabaer. Oleg, **The Formation of Islamic Art**, 1973, New Haven: Yale University press.
- Gross, Barry and Michael, Saudi Aramco World, July / August 2006, «A Virtual Tour: The Alhambra».
- Hamed, S., «Problems of Urban Settlements in the Desert Environment, **Qatar National Museum Journal**,(Arrayan, No 1, Fed. 1978) pp.5 - 17.
- Hamed, Safei-Eldin, The Arid Lands Newletter, Fall / Wintr 1994, Issue No. 26, «Historical Gardens of the Arid Middle East», Tuscon: University of Arizona Press.
- Irving, Washington, **the Alhambra**, New York Crescent Books, 1979 (2nd Edition).
- Jellicoe, et al, **The Oxford Companion to Gardens**, Oxford, UK: University Press, 1986.
- Jellicoe, Geoffrey and Susan, **The Landscape of Man**, London: Thames and Hudson, 1975.
- Lehrman, Jonas, **Earthly Paradise: Garden and Courtyard of Islam**, University of California Press, 1980.
- Lesiuk, Stephen M., EKISTICS:280, Jan/Feb1980, pp.66 - 68, «Landscape Planning for Energy Conservation in the Middle East».
- MacDougall, E.and Ettinghausen, R.(Eds), **The Islamic Garden**, Washington, D.C., 1976.
- McHarg, Ian, Design with Nature, Gardeb City, NY: Doubledoy/Natural History Press, 1969.
- Moore, Charles W.,et al, **The Poetics of Gardens**, 1988.
- Moynihan, Elizabeth B., **Paradise as a Garden in Persia and Mughul India**, 1980.
- Newton,Norman T., **Design on the Land**, Cambidge, Massachusetts: The Belknp Press of Harvard University Press, 1971.

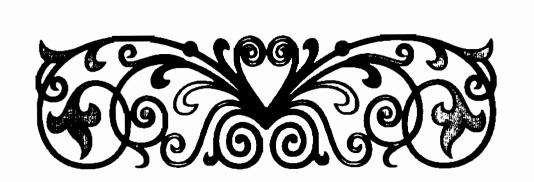
- Oldham, John and Ray, **Gardens in Time**, Sydny: Lansdowne Press, 1980.
- Ruggles, D. Fairchild, **Islamic Gardens abd Landscapes**, Philadelphia: University of Pennsylrania Press, 2000.
- Porter, Y .and Theven, A., **Palaces and Gardens of Persia**, Paris: Flammarion, 2003.
- Pratt, Beth, The Lubbock Avalanche-Journal, 2003, "Earthly Paradises: Islamic gardens find inspiration in the Quran".
- Qutb, Sayyid, **In the Shade of the Quran**, Vol. 30, MWH London: Publisher, 1979. Ruggles, D. Fairchild, **Gardens , Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain**, miversity Park: Penn State University Press, 2000.
- Stewart, Diversity, et al, **The Alhambra**, New York: Newsweek Book Division, 1974.
- Thackrt, Christopher, **The History of Gardens**, California: University of California Press 1979.
- Tobey, g. b., **A History of Landscape Architecture, The Relationship of People to Environment**, New York: American Elsevier Publishing Co., Inc., 1973.
- Von Hantelmann, Editor, **Gardens of Delight**, Köln, Germany: DuMont Buchverlag Publishing, 2001.
- Wescoate, James, Landscape Journal, "Landscapes of Conquest and Transformation: Lessons from Earlies Mughal Gardens in India: 1526-1530".
- Wescoat, James, Emironmental Design Jowrnal of the Islamic Environmental Design Research Center "Early System in Mughal India, (Rome) 2 (1985).
- Yassavoli, J., **The Fabulous Land of Iran**, Tehran: Yassavoli Publications, 2001.

٢-المواقع الإلكترونية ـ Web Sites

- http:// www.arcworld.org/ projects.asp
- http:// www.adab.com
- http://www.alhambra.org
- http://www.andalucia.com
- http://www.gardenvisit.com

نبذة عن المؤلف





الأستاذ صفى الدين حامد هو أستاذ العمارة والتخطيط البيئى بجامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد عمل الدكتور صفى الدين مستشارًا فى التنمية الدولية والتعمير لدى العديد من المنظمات العالمية مثل البنك الدولى، ووكالة المعونة الدولية، ومؤسسة أغا خان للتنمية، وهيئات حكومية مثل وزارة الخارجية الأمريكية، ووزارة حماية البيئة الأمريكية، وهيئات المتنزهات الوطنية بكندا، ومجلس التعاون الخليجى، والهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، ومجلس شؤون البيئة باليمن، ووزارة السياحة المصرية، والمعهد العربى للإنماء فى ليبيا.

وللدكتور صفى الدين العديد من المؤلفات فى حقول العمارة والتخطيط وإدارة البيئة، أهمها كتابه الصادر عام ٢٠٠٢ عن دار النشر الأمريكية «أودين ميلين ـ Edwin Mellen» بعنوان «التخطيط البيئى للأقاليم الصحراوية فى الشرق الأوسط ـ Landscape Planning for the Arid Middle East»، كما ساهم فى كتابة مجموعة كتب سياسية صادرة فى العالم العربى منها: «الإسلام فى أمريكا»، و«قارعة سبتمبر»، و«الإمبراطورية الأمريكية»، وقد صدرت الكتب الثلاثة عن مؤسسة الشروق الدولية.

والمؤلف حاصل على بكالوريوس الهندسة المعمارية من جامعة القاهرة، والماجستير من جامعة جورجيا، والدكتوراه من جامعة فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد قام بالتدريس فى جامعات نوفاسكوشيا، وميريلاند، وفرجينيا التقنية، وجورجيا، وتكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، وجويلف فى كندا.

وقد أسس الدكتور صفى الدين فى عام ١٩٧٧ قسم عمارة البيئة بجامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية وهو البرنامج الأول من نوعه بالجامعات العربية.







